البدعة الكبرى

محنة الإمام في صفة الكلام

تأليف
د/ محمود عبد الرازق الرضواني
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك



ش العزيز بالله - الزيتون - القاهرة
٤٥٢٢٩١٩ - ٠١٠٦٧٦١٢١٩

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

البدعة الكبرى

محنة الإمام في صفة الكلام

إعداد

د/ محمود عبد الرازق الرضواني

الأستاذ المشارك

بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة وأصول الدين

جامعة الملك خالد

مكتبة سلسبيل

ش العزيز بالله - الزيتون - القاهرة

٠١٠٦٧٦١٢١٩

مكتبة العلوم والحكم

المدينة المنورة

٨٤٥٢٢٧٣ - ٨٢٥١٩٤٢

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع بدار الكتب ـ ٢٠٠٥/٤٥٥٢

الترقيم الدولي - I.S.B.N

977 - 17 - 2575 - 9

www.asmaullah.com

للهدايا وطلبات الجملة

يرجى الاتصال مسبقا على الأرقام التالية

(٠٠٢٠٢) ٤٣٨٩١٨٧ ـ (٠٠٢) ٠١٠٦٧٦١٢١٩
(٠٠٢)٠١٢٢٣٤٨٢١٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد .

روى البخاري من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال : (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ . قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ : قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ . قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا ؟ فَقَالَ : هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا ، قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ . قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ : فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ)[1] .

لقد شهد التاريخ الإسلامي بعد عصر النبوة محنا وابتلاءات عديدة سعى فيها الحاقدون إلى شق الصف واختلاف الكلمة ، وكان من أخطر المحاولات تلك التي أثارت الفتنة في آخر أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ ، فقد وقف خلفها ابن سبأ اليهودي ينفث حقده بين أصحاب النبي ﷺ ويوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى تسبب في مقتلة عظيمة مات فيها كثير من الأصفياء الأبرياء ، ثم أعقبها بفكر خبيث انطلى على بعض العامة والدهماء ، وكانت النتيجة ظهور الخوارج والشيعة كفرقتين ضالتين تمثلان حملا ثقيلا على كاهل العلماء ، فقد استنزف الرد عليهم جهدا كبيرا في دفع شبه الضلال والأهواء ، وعلى الرغم من ذلك صمدت الأمة في وجه أعدائها

---

(١) البخاري في المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ١٣١٩/٣ (٣٤١١) .

ولملمت جراحها واجتمعت الكلمة فيها على كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ .

وبقي حال أمة محمد ﷺ في أغلب أمورها على خير إلى أن حدثت فتنة عظمى وبدعة كبرى عصف بالأمة وذاق مرارتها كثير من المسلمين على مر السنين ، تلك البدعة قتل بسببها آلاف المؤمنين الموحدين ، بدعة كبرى امتحن فيها العلماء والفقهاء والمحدثين ، فلم يصمد في وجهها إلا قليلا من الراسخين ، كان منهم إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حيث ثبت على قول الحق في توحيد الله وضرب به ضرب به المثل فقيل : أحمد ليوم البدعة .

لقد ترتبت على الأحداث التي وقعت في تلك البدعة أمور غيرت مسار الخير النقي الذي كان عليه الأوائل في خير القرون إلى خير فيه دخن كما عبر عن ذلك النبي ﷺ في حديث حذيفة ﷺ ، ومن ثم كان دافعنا لكتابة هذا البحث حول نشأة البدعة الكبرى وبيان حقيقتها ، وكيف عذب فيها أهل السنة من العامة والخاصة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل ، ثم بيان آثارها على الإسلام والمسلمين حتى عصرنا الحاضر وقد جاء هذا البحث بعد المقدمة على أربعة فصول وخاتمة بيانها على النحو التالي :

الفصل الأول : كيف ظهرت الجهمية والمعتزلة ؟

الفصل الثاني : رسالة المأمون في إلزام الأمة بخلق القرآن وبيان ما فيها من زور وبهتان .

الفصل الثالث : صمود إمام أهل السنة في وجه الظلم والبدعة .

الفصل الرابع : نهاية المحنة وقمع البدعة وظهور المذهب الأشعري .

الخاتمة واشتملت على ملخص البحث وأهم النتائج .

قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، أسأل الله ﷻ أن يهدينا سبل الرشاد ، وأن يشفع فينا نبينا محمدا ﷺ يوم يقوم الأشهاد .

وكتبه

د/ محمود عبد الرازق الرضواني

الفصل الأول
كيف ظهرت الجهمية والمعتزلة ؟

• منهج الصحابة والتابعين في فهم القرآن والسنة .

حقيقة الإسلام في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب كانت ممثلة في تصديق الصحابة لخبر الله وتنفيذ أمره ، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان ، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام ، وهذا المنهج يعتبر منهجا إيمانيا فطريا مبنيا على الفهم الدقيق لحقيقة الإسلام والإيمان ، فهم كانوا يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن ، وينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية .

ذلك المبدأ ـ أعني مبدأ تصديق الخبر وتنفيذ الأمر بعيدا عن الفلسفات العقلية والآراء الكلامية التي أحدثتها مختلف الفرق الإسلامية ـ هو غاية من جاء بعدهم وسلك دربهم في مختلف العصور ، مهما تنوعت كلماته أو بدت اعتقاداته في توحيد الله ﷻ والعمل بأحكامه ، فالمسلم الصادق في عصر خير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله فإنه يكون قد عقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب ، والذي يطاع في أمره دون عصيان ، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن وفهمها أصحاب اللسان .

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن أساس التوحيد والهداية التي منَّ الله ﷻ بها على عباده يقوم على تصديق خبر الله من غير اعتراض شبهة ، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة ، ثم يقول : (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان ، وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر)[1] .

ولما كان الصحابة ﷺ هم أهل الفصاحة واللسان ، وقد خاطبهم الله ﷻ بنوعي الكلام في القرآن فإن منهجهم في مسائل التوحيد والإيمان هو تصديق الخبر وتنفيذ الأمر ، فلو أخبرهم الله عن شيء صدقوه تصديقا جازما يبلغ حد اليقين ن ، وهذا ما

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٠ .

عرف لاحقا عند المتمسكين بمنهج السلف الصالح بتوحيد العلم والخبر ، أو توحيد المعرفة والإثبات ، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، أو غير ذلك من مسميات واصطلاحات .

والصحابة ﷺ لو أمرهم الله بشيء نفذوه تنفيذا كاملا بالقلب واللسان والجوارح وهو ما عرف لاحقا بتوحيد العبادة ، أو توحيد الإلوهية ، أو توحيد القصد والطلب لأن غاية التوحيد العظمى وطريقة السلف المثلى التي جاهدوا المخالفين لإلزامهم بها أن يثبتوا ما أثبته الله ﷻ لنفسه بتصديق خبره ، وأن يطيعوا الله فيما أمر به على لسان نبيه ﷺ ، وقد أجمع الصحابة ﷺ إجماعا سكوتيا دون مخالف أن يصدقوا خبر ربهم وبلاغ نبيهم ، وأن ينفذوا أمر معبودهم عن خضوع وتسليم ومحبة وتعظيم ، ولم يكن بينهم من دان بغير ذلك ، ومن شك في ذلك فما قدرهم حق قدرهم ، وما أدرك حقيقة إيمانهم وإسلامهم رضي الله عنهم أجمعين .

ونحن لو طالعنا نصوص القرآن والسنة جملة وتفصيلا علمنا أن أساس الرسالة يكمن في تصديق خبر الله وتنفيذ أمره ، فقد روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال : (لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حتى صَعِدَ الصَّفَا ، فَهَتَفَ : يَا صَبَاحَاهْ ، فَقَالُوا : مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [(١)] .

صدق الصحابة ﷺ نبيهم تصديقا جازما في خبره عن الله ﷻ ، أما المشركون فكذبوه حتى قال له عمه : (تَبًّا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلا لِهَذَا ثُمَّ قَامَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١]) [(٢)] ، وعند ابن ماجة وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال عن المسلم وهو يسأل في قبره : (فَيُقَالُ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ الله فَصَدَّقْنَاهُ فَيُقَالُ لَهُ .. عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ وَعَلَيْهِ مُتَّ ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ الله) [(٣)] .

---

(١) البخاري في تفسير القرآن ، باب تفسير سورة تبت يدا أبي لهب ١٩٠٢/٤(٤٦٨٧) .

(٢) جزء من الحديث السابق .

(٣) ابن ماجة في الزهد ، باب ذكر القبر والبلى ١٤٢٦/٢ (٤٢٦٨) ، وانظر صحيح الجامع (١٩٦٨) .

وهم كما صدقوا نبيهم ﷺ في كل ما أخبرهم به عن ربهم فإنهم أطاعوه أيضا في كل ما أمرهم به وكانوا يبايعونه على ذلك ، روى البخاري من حديث جرير بن عبد الله ﷺ أنه قال : (بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَلَقَّنَنِي فقال : فِيمَا اسْتَطَعْتُ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) (١) ، وروى أيضا من حديث أبي هريرة ﷺ في موقفه مع أهل الصفة لما أمره النبي بدعوتهم إلى الطعام وكان يتلوى من شدة الجوع قال : (فَسَاءَنِي ذَلِكَ .. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ) (٢) .

هذا حال الصحابة ﷺ وحال من سلك نهجهم من السلف وحال كل مسلم صادق نقي الفطرة من العامة والخاصة ، روى الإمام مالك في الموطأ من حديث ابن أبي مليكه أنه قال : (مَرَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ بِامْرَأَةٍ مَجْذُومَةٍ وَهِيَ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَقَالَ لَهَا : يَا أَمَةَ اللهِ لا تُؤْذِي النَّاسَ ، لَوْ جَلَسْتِ فِي بَيْتِكِ ؛ فَجَلَسَتْ ؟ فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهَا : إِنَّ الذِي كَانَ قَدْ نَهَاكِ قَدْ مَاتَ فَاخْرُجِي ، فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لأُطِيعَهُ حَيًّا وَأَعْصِيَهُ مَيِّتًا) (٣) .

وعليه فإن طريقة السلف طريقة الإيمان والتسليم بالوحي حيث يؤمنون بكل خبر ورد في القرآن والسنة ويصدقون به تصديقا جازما يبلغ حد اليقين ، وينفذون كل أمر شرعي ورد فيهما تنفيذا كاملا ، ويعلمون أن ما جاء في القرآن أو صحيح السنة لا يمكن أن يناقض صريح العقل والحكمة ، لأنهم مؤمنون بأن الله ﷻ هو الذي خلق العقل وهو الذي أرسل إليه النقل ، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده ، كما أنه سبحانه وتعالى أعلم بصناعته لعقل الإنسان وأعلم بما يصلحه مهما تنوع شأن الزمان والمكان ، ومن ثم أيقنوا أن الله إذا وضع نظاما ببالغ علمه وحكمته ممثلا في دينه وشريعته هداية وإرشادا لتوجيه صنعته ، كان من المحال أن يضل الإنسان أو يشقى أو يعيش معيشة ضنكا إذا اتبع هداية الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ [طه:١٢٣] .

وقد كان إرشاد النبي ﷺ لأصحابه يهدف إلى التسليم للوحي والإيمان به دون نزاع

---

(١) البخاري في الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس ٢٦٣٤/٦ (٦٧٧٨) .
(٢) البخاري في الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي ﷺ ٢٣٧٠/٥ (٦٠٨٧) .
(٣) الموطأ ٤٢٤/١ (٩٥٠) .

وأن صلاحهم يكمن في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، روى مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ؟ ـ وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ ـ قَالَ : قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ)[1] .

وأصل الاستقامة الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم ، ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله من أخبار والتسليم لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر ؛ فإن التقصير في جانب سيؤدي إلى المبالغة أو الانحراف في جانب آخر ، روى أحمد وصححه الألباني من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال : (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ : هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام:١٥٣])[2] .

وقد ظل أمر السلف الصالح في القرون الفاضلة على نهج الوسطية والاعتدال والشمولية ، يسيرون بفضل الله على درب نبيهم ، يلتزمون بالسنة لا يقصرون فيها ولا يهونون منها ، ويحذرون من البدعة وينبهون على خطورتها .

وظلت أمور العقيدة على هذا الحال صافية نقية والأمة الإسلامية تؤدي حقيقة العبودية التي أرادها الله ﷻ من استخلاف البشرية ، حتى ظهر أثر الحاقدين في التشويش على عقيدة المؤمنين ، وبرز فكر الجاهلين الذين يقدمون آراءهم وأهواءهم على كل نص قرآني أو حديث نبوي ، فكان من أبرزهم في التاريخ الإسلامي عبد الله بن سبأ اليهودي ، الذي أسهم في تفرق الأمة الإسلامية ، وكان سببا مباشرا في ظهور الشيعة والخوارج كأبرز فرقتين ضالتين بين الطوائف الإسلامية .

• كيف ظهرت الجهمية؟

أساس البلاء وسبب الشقاء وحامل لواء مقدمي الآراء على كتاب الله وسنة

---

(١) مسلم في الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨) .

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٤٣٥ (٤١٤٢) ، وانظر تصحيح الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ٥٨٧ .

رسوله ﷺ رجل يدعى الجهم بن صفوان الخرساني الذي توفى في نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري [(١)] .

وكان الجهم متحذلقا كثير الكلام والجدال ، ولم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم بل كلامه وجداله أساسه الرأي والهوى ، ويذكر العلماء أن الجهم استمد فكره من طريقين : أحدهما طريق يهودي ، والآخر طريق وثني ، فقد تربّى الجهم بن صفوان على يد أستاذه الجعد بن درهم ، وهو رجل من المنكرين لأوصاف الله بحجة نفي التشبيه ، أخذ جل أفكاره وآراءه عن أبان بن سمعان الذي كان تلميذا لطالوت بن أخت لبيد بن الأعصم الساحر اليهودي الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة .

قال ابن تيمية : (أصل مقالة التعطيل للصفات إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين ، فان أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة ، وأن معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم ابن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه ، وقد قيل إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ، وكان الجعد بن درهم هذا فيما قيل من أهل حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم) [(٢)] .

وقد تجلى حقد اليهود بعد هزيمتهم والقضاء عليهم في إقدامهم على إيذاء النبي ﷺ بسحرهم وطرقهم المعهودة في الغدر والوقيعة بين أبناء الأمة ، روى الإمام البخاري من حديث عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا أنها قَالتْ : (سَحَرَ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي

---

(١) انظر ترجمته في أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي ص٢٣٠ ، إثبات صفة العلو لابن قدامة ص١٣١ ، إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لمحمد القاسمي ص٢٨٩ ، التحفة المدنية في العقيدة السلفية لحمد آل معمر ص١٦٦ الرد على القائلين بوحدة الوجود لعلي الحنفي ص٣٠ ، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١٠٥/٣ ، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٩٣ ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري ص٥٤٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ٣٥٠/٩ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٠/٥ .

زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ ، حتى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ - تقصد الجماع حيث يظن النبي ﷺ أنه على جنابة - حتى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي ، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ، ثُمَّ قَالَ : يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ، أَتَانِي رَجُلانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ : مَطْبُوبٌ ، قَالَ : مَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ ، قَالَ : فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ ، قَالَ : وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ : فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ ، فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَجَاءَ فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ : قَدْ عَافَانِي اللهُ فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ على النَّاسِ فِيهِ شَرًّا ، فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ)[(١)] .

وفي رواية أخرى عند البخاري : (فَقُلْتُ : اسْتَخْرَجْتَهُ ؟ فَقَالَ : لا ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللهُ وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ على النَّاسِ شَرًّا ، ثُمَّ دُفِنَتِ البِئْرُ)[(٢)] .

ذلك السحر إنما صدر عن حقد يهودي امتد ليفرق كلمة الأمة بظهور عبد الله بن سبأ اليهودي ثم امتد ليصل إلى الجعد بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان ، فعقائد الجهم ونظرياته إنما هي تشكيك في العقيدة واعتراض على الوحي استقاها من أسس يهودية بعيدة كل البعد عن منهج الصحابة في العقيدة الإسلامية .

أما الطريق الثاني الذي استمد منه الجهم بن صفوان فكره فهو طريق وثني ظهر إثر احتكاكه بالمشركين ، فالجهم لقي أناسا من المشركين يقال لهم السمنية نسبة إلى قرية بالهند تسمى سُومَنَات ، وهي فرقة تعبد الأصنام وتقول بتناسخ الأرواح وتنكر الوحي والدين ، جرت بينهم وبين الجهم مناظرة عقلية ، لما عرفوا الجهم قالوا له : نكلمك ونناظرك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا ، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك ، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له : ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال الجهم : نعم قالوا له : فهل رأيت إلهك ؟ قال : لا ، قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال :

---

(١) البخاري في كتاب الطب ، باب السحر٢١٧٤/٥ (٥٤٣٠) .

(٢) البخاري في بدأ الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ١١٩٢/٣ (٣٠٩٥) .

لا قالوا : فهل شممت له رائحة ؟ قال : لا ، قالوا : فوجدت له حسا ؟ قال : لا ، قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوما [١].

وقد استدرك الجهم بن صفوان حجة كحجة النصارى الذين يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو الله ، وأن الله يحل فيه ، فإذا أراد الله أمرا دخل في عيسى فتكلم على لسانه فيأمر بما يشاء وينهى عما يشاء ، وهو روح غائبة عن الأبصار ، فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة وقال لمن ناظره من السمنية : ألست تزعم أن فيك روحا؟ قال السمني : نعم ، فقال له : هل رأيت روحك ؟ قال : لا ، قال : فسمعت كلامها؟ قال : لا ، قال : فوجدت لها حسا ؟ قال : لا ، قال : فكذلك الله لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا يشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، وهو في كل مكان ، فالمخلوقات بمثابة الجسد والله ﷻ في داخلها بمثابة الروح [٢].

شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوما ، وقال : لا أصلي لمن لا أعرفه ثم اشتق هذا الكلام فأنكر عليه الوالي فقال : إذا ثبت عندي من أعبده صليت له فضرب عنقه [٣].

قال أبو معاذ البلخي : (كان جهم على معبر ترمذ - بلد من نواحي إيران - وكان رجلا كوفي الأصل فصيح اللسان ، لم يكن له علم ولا مجالسه لأهل العلم ، وكان قد تناقل كلام المتكلمين وكلمه السمنية ، فقالوا له : صف لنا ربك الذي تعبده؟ فدخل البيت لا يخرج كذا وكذا ، ثم خرج عليهم بعد أيام فقال : هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء ، ولا يخلو منه شيء) [٤].

وكان يكفي الجهم بن صفوان في الرد على السمنية أن يقول : إن الله يرى في الآخرة ولا يرى في الدنيا لأنه اختبرنا فيها وابتلانا بها ، فلو رأيناه أو رأينا ملائكته أو رأينا جنته وعذابه دون حجاب لما كان لقيام السماوات والأرض بهذه الكيفية أو بهذا الوضع الذي فطرنا عليه أي معنى يذكر ولذلك قال ﷻ : ﴿ الذي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ

---

(١) انظر الرد على الزنادقة والجهمية ١٩/١ ، بيان تلبيس الجهمية ٣١٨/١ ، مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢١٨/٤ ، درء التعارض ٤٠٩/٢ .

(٢) السابق ١٩/١ .

(٣) الوافي في الوفيات ١٥٥٧/١ .

(٤) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لا بن جماعة ص٣٤ .

ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ [الملك:٢] ، وقال أيضا : ﴿ ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ [إبراهيم:١٩] ، فكيف يتحقق معنى الابتلاء أو الإيمان بالله ونحن نراه ؟

وإذا كان الله لا يرى في الدنيا ابتلاءا فإنه يرى في الآخرة جزاء وإكراما لأهل طاعته كما قال : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة:٢٢/٢٣] ، وقد تواترت الأحاديث النبوية الصحيحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

ومن ثم فإن العلة في عدم إدراك الكيفية ليست عدم وجودها ولا استحالة رؤية الله ﷻ ، ولكن العلة قصور الجهاز الإدراكي البشري في الحياة الدنيا عن إدراك حقائق الغيب ، فقد خلق الله الإنسان بمدارك محدودة لتحقيق علة معينة تمثلت في حقيقة الابتلاء كما قال ﷻ : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ [الإنسان:٢] .

وما يعنينا الآن أنه بهذا الفكر العقلي الخبيث الذي زعم به الجهم بن صفوان أن الله حل في مخلوقاته وهو بذاته في كل مكان نظر في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما ظن أنه يوافق رأيه من النصوص احتج بها وما ظن أنه يخالف مذهبه منها أنكرها وعطلها عن مدلولها وإن كانت تلك النصوص من السنة فالويل لها فقد اتهمها بأنها أمور ظنية وآحاد معنعنة لا تدل على اعتقاد فوجد قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ [الحديد:٤] فأخذه حجة لرأيه في الحلول والاتحاد ، وكذلك قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ [الأنعام:١٣] ، فبنى عليه نفي صفات الله وتعطيلها ووجد قوله ﷻ : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه:٥] ، وقوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ [المعارج:٤] يخالف ما ذهب إليه من القول بالحلول ، ماذا صنع الجهم بتلك النصوص؟

قال أبو نعيم البلخي وكان قد أدرك جهما : (كان للجهم صاحب يكرمه ويقدمه على غيره فإذا هو قد هجره وخاصمه فقلت له : لقد كان يكرمك ، فقال : إنه جاء منه ما لا يتحمل بينما هو يقرأ سورة طه والمصحف في حجره إذ أتى على هذه الآية : ﴿ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه:٥] ، قال : لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت فاحتملت هذه ، ثم إنه بينما يقرأ آية أخرى إذ قال : ما أظرف محمدا حين قالها ثم

بينما هو يقرأ القصص والمصحف في حجره إذ مر بذكر موسى ﷺ فدفع المصحف بيديه ورجليه ، وقال : أي شيء هذا ؟ ذكره هنا فلم يتم ذكره وذكره هنا فلم يتم ذكره) [(١)] .

وقد أخذ الجهم بن صفوان كما ذكرنا عن أستاذه الجعد بن درهم الذي قال بنفي أوصاف الله ﷻ وعطل الآيات عن مدلولها وقال بخلق القرآن ، قال أبو القاسم اللالكائي : (ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم ثم جهم بن صفوان) [(٢)] .

والجهم بن صفوان إليه تنسب طائفة الجهمية الذين قالوا لا قدرة للعبد أصلا بل هو بمنزلة الجمادات ، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى ، وقال أبو الحسن الأشعري : (قول الجهمية الذي تفرد به جهم القول بأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان ، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل به فقط وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده ، وأنه هو الفاعل ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز ، كما يقال : تحركت الشجرة ودارت السفينة وزالت الشمس وإنما فعل ذلك بالشجرة والسفينة والشمس الله سبحانه وتعالى ، وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [(٣)] .

وكان جهم يقف على الجذامى ويشاهد ما هم فيهم من البلايا ويقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا [(٤)] ، يعني أنه ليس هناك رحمة في الحقيقة ولا حكمة ، وأن الأمر راجع إلى الجبر وإلى محض المشيئة الخالية عن الحكمة والرحمة .

وقد قتل الجعد بن درهم حدا وذلك لكفره الصريح بآيات الله وتكذيبها ، قتله خالد بن عبد الله القسري أمير بلاده في يوم عيد الأضحى بعد أن استفتى علماء زمانه حيث خطب الناس وقال : ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم ؛ فإنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسي تكليما ثم نزل فذبحه ، وكان ذلك بعد أن استفتى علماء زمانه من السلف الصالح [(٥)] .

---

(١) انظر العلو للعلي الغفار ص١٥٤ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ٣١٢/٢ .

(٣) انظر إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة ص٣٤ .

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١٧٧/٢ .

(٥) انظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات ص٧٨ .

ويذكر الذهبي : (أن الجعد بن درهم هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا ولا كلم موسى وأن ذلك لا يجوز على الله ، قال المدائني : كان زنديقا ، وقال له وهب : إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله أن له يدا وأن له عينا ما قلنا ذلك ثم لم يلبث الجعد أن قتل وصلب) [١].

أما الجهم بن صفوان انتقل إلى ترمذ أحد البلدان في إيران ، وبدأ الدعوة لمذهبه فانتشرت فيها عقائد الإنكار والتعطيل لكلام الله ، ثم وجد لدعوته أتباعا ومريدين من العامة والدهماء والجاهلين في مدن أخرى من مدن إيران ، ثم انتشرت أفكاره في بغداد وبقية البلدان ، فالجهمية فرقة ظهرت في أواخر الحكم الأموي ومؤسسها الجهم بن صفوان الترمذي السمرقندي وقد مات مقتولا ، قتله سالم بن الأحوز في آخر أيام الدولة الأموية [٢].

وقد تفرعت من فرقة الجهمية فرق عديدة انقسمت إلى أكثر من عشر فرق كل فرقة اتخذت لنفسها مسلكا فكريا خاصا وعقيدة مستقلة ، لكن أبرز عقائد الجهمية هي القول بنفي صفات الله ﷻ ، وأن الإنسان لا يقدر على شيء ، وهو مجبور مسير مقهور في فعله لا يوصف بالاستطاعة والقدرة ، وأن الجنة والنار تفنيان ، وأن الإيمان هو معرفة الله حتى لو كفر الإنسان باللسان ، وقالوا أيضا بأن القرآن مخلوق [٣].

والقصد مما سبق أن الجهم بن صفوان زعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ فهو مشبه ، وأن التوحيد يكمن في نفي هذه الصفات متمسكا بزعمه بقول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] سواء كان النفي نفيا واضحا ، أو كان بتأويل القرآن على غير معناه ولي أعناق النصوص بغير ما تحتمل ، فزعم الجهم أن الله في كل مكان كما الروح في الجسد .

وهذا كلام باطل من جميع الوجوه لأن الله سبحانه وتعالى لا يحل في مخلوقاته فقد ثبت أنه بذاته في السماء فوق العرش ، وعرشه فوق الماء ، والماء فوق السماء السابعة وهو سبحانه في سمائه يدبر أمر مخلوقاته ويعلم ما هم عليه .

---

(١) تاريخ الإسلام ١/ ٨٦١ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٢٥/٦٤ ، الملل والنحل للشهرستاني ٢٠/١ ، والوافي بالوفيات ١/ ٤٦٠ .

(٣) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، طاهر بن محمد الإسفراييني ص١٠٧.

قال أبو عمر الطلمنكي : (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ونحو ذلك من القرآن أنه علمه وأن الله تعالى فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، وقال أهل السنة في قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] : إن الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة لا على المجاز)[١].

وقال أبو زرعة الرازي : (إن الله ﷻ على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ بلا كيف أحاط بكل شيء علما ، وإنه تبارك وتعالى يرى في الآخرة يراه أهل الجنة بأبصارهم ويسمعون كلامه كيف شاء وكما شاء)[٢].

وقال أبو نعيم الأصبهاني : (طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة ثم قال : فما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها ويثبتونها من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف ، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه ، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه في سمائه دون أرضه وخلقه .. وقال أيضا : وأجمعوا أن الله فوق سماواته عال على عرشه مستو عليه لا مستول عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان خلافا لما نزل في كتابه)[٣].

وقال أبو الحسن الأشعري عند قوله : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ في السَّمَاءِ ﴾ : (السماوات فوقها العرش ، ولما كان العرش فوق السماوات ، قال أأمنتم من في السماء لأنه على العرش الذي فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السماوات ، وليس إذا قال : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ في السَّمَاءِ ﴾ يعني جميع السماوات ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات)[٤].

وقال يحى بن معاذ الرازي : (إن الله على العرش بائن من خلقه ، قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، لا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء أو هالك مرتاب يمزج الله بخلقه ويخلط منه الذات بالأقذار والأنتان)[٥].

---

(١) انظر العلو للعلي الغفار ص٢٤٦ .

(٢) إثبات صفة العلو لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ص ١٢٥ .

(٣) أقاويل الثقات للكرمي ص٨٩ .

(٤) الإبانة عن أصول الديانة ص١٠٥ .

(٥) العلو للعلي الغفار ص١٩٠ .

وقد أضل الجهم بن صفوان خلقا كثيرا وتبعه على قوله رجل يقال له واصل بن عطاء ، ورجل آخر يقال له عمرو بن عبيد وإليهما ينسب مذهب المعتزلة ، فما هي قصة المعتزلة ؟ وكيف نشأت وما أصولهم في العقيدة ؟ وكيف دعوا الناس إلى القول بخلق القرآن ؟ وكيف امتحنوا أئمة أهل السنة وقتلوا كثيرا من أهل الإيمان؟

• كيف ظهرت المعتزلة ؟

علمنا مما سبق أن الجهم بن صفوان قدم عقله ورأيه على الأدلة القرآنية والنبوية عندما أجاب السمنية بجهله إجابة خاطئة كاذبة ، وزعم أن الله بذاته في كل مكان وأنه لا صفة له حتى لا يشبه الإنسان ، ثم نظر هذا المفتون إلى القرآن فما تصور أنه يوافق مذهبه جعله دليلا وبرهان ، وما خالفه صرح برده ونفيه من القرآن .

وقد تبنى فكر الجهمية واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وإليهما ينسب مذهب الاعتزال ، فالمُعْتَزِلة أتباع واصل بن عطاء الغزال (ت:١٣١هـ) الذي كان تلميذا للحسن البصري ، وكان متكلما مفوها بليغا على الرغم من كونه كان عاجزا عن النطق ببعض الحروف ، فكان ينطق الراء غينا ، فينطق : شراب بارد شغاب باغد ، ومن عجيب ما كان من واصل ، أنه كان يخلص كلامه وينقيه من حرف الراء ، لقدرته العجيبة على انتقاء الكلام حتى قال أحد الشعراء من أتباعه يمدحه :

عليم بإبدال الحروف وقامع : لكل خطيب يقلب الحق باطله [(١)] .

وقال آخر :

ويجعل البر قمحا في تصرفه : وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يُطِقْ مطرا والقَوْلُ يَعْجُلُه : فعاذ بالغيث إشفاقا من المطر [(٢)] .

كان واصل بن عطاء ضمن الطلاب في حلقة الشيخ الحسن البصري وهو من علماء السلف الصالح ، فجاء إلى الحلقة رجل من عامة المسلمين يسأل عن الحكم الشرعي في مرتكب الكبيرة ؟

ومعلوم أن أهل السنة والجماعة يقولون بأن مرتكب الكبيرة مسلم فاسق لا يخرج

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان ٧/٦ .

(٢) السابق ٨/٦ .

عن الملة ، والخوارج يقولون : مرتكب الكبيرة كافر بالله العظيم مخلد في النار ، وقبل أن يجيب الشيخ البصري قام واصل بن عطاء دون أدب ولا حياء ، وقال : إن الفاسق من هذه الأمة لا هو مؤمن ولا هو كافر ، هو في منزلة بين المنزلتين [(١)] .

أجاب واصل بعقله دون احترام لشيخه ودون علم أو نظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، عند ذلك رده الحسن البصري وبين حكم مرتكب الكبيرة ، وبدلا من أن يرجع إلى شيخه ويعتذر عن سوء أدبه أخذته العزة بالإثم واعتزل الحسن البصري وجلس إلى سارية من سواري المسجد في البصرة ، وانضم إليه بعد ذلك رجل آخر يقال له عمرو بن عبيد ، واجتمع إلى واصل بن عطاء أراذل الناس من أتباع الجهم بن صفوان ، فكان الحسن البصري يقول : اعتزلنا واصل ، اعتزلنا واصل ، وكان بقية طلاب العلم من تلاميذ الحسن البصري يطلقون عليهم المعتزلة ، فارتسم عليهم هذا الاصطلاح عند عامة المسلمين [(٢)] .

وكان هؤلاء المعتزلة يدعون الزهد والصلاح والنصح والإصلاح ، وكان لهم صلة بالحكام في الدولة العباسية ، دخل عمرو بن عبيد يوما على أبي جعفر المنصور أيام خلافته ، وكان أبو جعفر صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار ، فقربه المنصور وأجلسه ثم قال له : عظني يا عمرو ، فقال له كلاما كثيرا جاء في بعضه : إن هذا الأمر الذي أصبح في يدك لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك فأحذرك ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ، فلما أراد عمرو النهوض والخروج من القصر قال أبو جعفر المنصور قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم . قال عمرو بن عبيد : لا حاجة لي فيها ، قال : والله لتأخذها . قال : والله لا آخذها . وكان المهدي ابن المنصور حاضرا ، فقال : يحلف عليك أمير المؤمنين وتحلف أنت بغير ما أراد . فالتفت عمرو بن عبيد إلى المنصور وقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا المهدي ولدي وولي عهدي . فقال عمرو : أما إنك ألبسته لباسا ما هو من لباس الأبرار ؟ وسميته باسم ما استحقه ، ومهدت له أمرا هو أشغل ما يكون عنه . ثم التفت عمرو بن عبيد إلى المهدي ، وقال : نعم يا ابن أخي إذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على

---

(١) النجوم الزاهرة ٣١٤/١ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ١٥٩/١ بتصرف .

الكفارات من عمك ؟ فقال له المنصور : هل من حاجة ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيك . قال : إذا لا تلقني . قال : هي حاجتي ومضى عمرو بن عبيد ، فأتبعه المنصور بطرفه وقال : كلكم يمشي رويده ، كلكم يطلب صيده ، غير عمرو بن عبيد [١] .

تلك الصحبة أو الصداقة بين رؤوس المعتزلة وخلفاء بني العباس أثارت حفيظتهم في الأخذ بمشورتهم والعمل بنصيحتهم ، وقد أدت هذه الثقة إلى بدعة كبرى وطامة عظمى مرت بالأمة الإسلامية وعصفت بها في القرن الثالث الهجري ولا زالت تعاني من آثارها حتى الآن .

• الأصول الخمسة عند المعتزلة .

وقد أسس المعتزلة مذهبهم على خمسة أصول رنانة وشعارات فتانة ، اغتر بها كثير من المسلمين في الماضي وكثير من العلمانيين في الحاضر :

الأصل الأول : التوحيد فقد زعموا فيه أنهم أهلُ التوحيد وخاصتُه ، والمنزهون لربهم عن التشبيه ، وخلاصة رأيهم في التوحيد أن الله تعالى لا صفة له لأنه منزه عن الشبيه والمثيل كما قال : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى:١١] ، وهذا توحيد يناقض الفطرة ولا ينطلي إلا على أذهان السفهاء ، بل هو توحيد يسخر منه جميع العقلاء فهل يصح أن تقول مثلا ولله المثل الأعلى : الأمير لا نظير له أبد ، فيقال لك في ماذا؟ أو ما الذي انفرد به ؟ فتقول : ولا شيء ، أو لا صفة له أصلا .

ولا نظن عاقلا يقبل ذلك على نفسه فضلا عن ربه ، فالعقلاء يمدون غيرهم بإثبات الصفات التي تليق بهم ، والموحدون لله حقا يحمدون ربهم بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، أما توحيد المعتزلة فتوحيد معكوس يزعمون فيه أنهم يمدحون ربهم وهم في حقيقة أمرهم يذمونه ويصفونه بصفات النقص التي لا يرضاه عاقل لنفسه ، وقد أداهم توحيدهم هذا إلى القول بنفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى والقول بخلق القرآن وزعموا أنه مخلوق كسائر المخلوقات [٢] .

الأصل الثاني : العدل ومعناه على رأيهم أن الله لا يخلق أفعال العباد ، فعطلوا

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ٤٦١/٣ .

(٢) انظر المزيد عن هذا الأصل في التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٣٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦] ، وستروا تحت شعار العدل نفي التقدير وعلم المقادير ، وقالوا : إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به إذ لو خلقه ثم عذبهم عليه كان ذلك جورا وظلما والله تعالى عدل لا يظلم ولا يجور .

وقد يفتن العامة بأصلهم هذا كما فعل العلمانيون والماديون الذين لا يؤمنون بالتقدير وجريان المقادير ، أو كما هو منتشر بين العامة من العبارات التي يرددها الفاسقون كقول بعضهم : قدر أحمق الخطى سحقت هامتي خطاه ، وهذه الكلمة كفيلة وحدها بإخراج قائلها من ملة الإسلام إن كان يدرك معناها ويفهم لوازمها ، أو كقول بعضهم بجهلهم : إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر ، وكأن أفعال الله أسيرة أو مرهونة بأفعال عباده ، وقد قال الله في كتابه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الإنسان:٣٠] ، وقال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١] ، وقال : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً ﴾ [الكهف:٢٣/٢٤] .

لا فرق بين كلام هؤلاء وكلام المعتزلة فهذا الأصل الفاسد الذي رفعوا فيه شعار العدل ، يلزمهم فيه أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده ، فيريد الشيء ولا يكون ولازمه وصفه سبحانه بالعجز في مقابل وصفهم بمطلق المشيئة والحرية ونفي كونها مشيئة محدودة ومقيدة بالاختيار بين طريقين ، طريق الخير أو الشر ، أو طريق الإيمان أو الكفر ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان:٣] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن:٢] (١) .

الأصل الثالث : المنزلة بين المنزلتين ويقصدون به أن مرتكب الكبيرة في الدنيا في منزلة بين الإيمان والكفر ، خرج من الإيمان ولم يدخل الكفر فليس بمؤمن ولا كافر

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٠ بتصرف .

وقد قرر ذلك الأصل واصل بن عطاء رأس المعتزلة لما رد على السائل في حلقة الشيخ الحسن البصري .

أما حكم مرتكب الكبير في الآخرة فهم يتفقون في ذلك مع الخوارج حيث يقولون بأنه مخلد في النار ، ولا يخرج منها أبدا ، ولا تجوز فيه شفاعة النبي ﷺ ، والفرق بين المذهبين أن الخوارج يقولون بأن مرتكب الكبيرة في الدنيا كافر خارج من الملة والمعتزلة يقولون هو في منزلة بين المنزلتين ، أو بين الإيمان والكفر [١] .

الأصل الرابع : إنفاذ الوعيد ويقصدون به حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة ويعني عندهم أن الله ﷻ يجب عليه أن يعاقب مرتكب الكبيرة من المسلمين ويخلده في النار أبد الآبدين ، ولا يجوز أن يخرجه من النار بشفاعة أحد من المؤمنين حتى لو كان الشافع سيد الأنبياء والمرسلين ، فهم يشبهون الخوارج في قولهم : إذا توعد الله بعض عبيده وعيدا فلا يجوز ألا يعذبهم ويخلف وعيده ، وكأنه سبحانه مقيد لا يعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يشاء ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [٢] .

الأصل الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا الشعار الرنان الذي يفتن به كل إنسان يقصدون به الدعوة إلى أصولهم الخمسة ، فالمعروف عندهم هو من اعتنق أصولهم ودان بها ، والمنكر عندهم هو اتباع مذهب السلف أهل السنة والجماعة ، وقد أدى بهم هذا الأصل أن يجوزوا مسلك الخوارج في الخروج على حكام المسلمين وخلفائهم بالسيف [٣] .

• تقديم العقل على النقل عند المعتزلة .

ومن مبادئ المعتزلة أيضا الاعتماد كليا على عقولهم وآرائهم في الاستدلال لعقائدهم كأمر أساسي ومنهج حتمي قطعي الدلالة ، ثم بعد ذلك النظر في القرآن كدليل ثانوي قد يقبل وقد يعطل حسب القواعد الموضوعة بعقولهم وأهوائهم ، وكان من آثار اعتمادهم على العقل في إدراك العقائد أنهم كانوا يفردون العقل بالحكم على جميع الأشياء

---

(١) انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٣٧ بتصرف .

(٢) السابق ص٣٨ بتصرف .

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/١٢٦ بتصرف .

حسنا أو قبحا حتى الأحكام الشرعية وسائر النصوص القرآنية والنبوية يحسنون فيها ويقبحون منها ما أرادوا ، ومن هنا كثر ابتداعهم ومخالفتهم لسنة المصطفى ﷺ لتصادم أحكامهم في الحسن والقبح مع أحكام النبي ﷺ وتحسينه للأشياء أو تقبيحها .

ومعلوم أن أي متبع للسلف الصالح لا يجوز أبد أن يكون النقل عنده مطية للعقل بحيث يوجه الإنسان آيات القرآن في غير موضعها ، ويحول أدلة السنة في غير مسارها الذي جاءت من أجله ، كما فعل أصحاب المدرسة العقلية المتبعين لمنهج المعتزلة والجهمية عندما وضعوا أنسقة فكرية في أذهانهم كفروض يعملون على إثباتها ، وغايتهم من البحث في القرآن والسنة أن يجدوا بين الآيات والأحاديث ما يؤيد رأيهم ويقوي ما ذهبوا إليه بعقولهم ولو بتعسف ، وإن وجدوا في الأدلة ما يخالف مذهبهم قاموا بتأويل الآيات والأحاديث تأويلا باطلا لا تحتمله النصوص ولا يقوم على دليل صريح واضح ، أو قاموا برد الأحاديث الثابتة بالسند الصحيح بزعم أنها ظنية من رواية الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد .

وهنا سؤال ربما يطرحه بعض المتكلمين من المتبعين لطريقة الأشعرية أو المفتونون بتقديم العقل على النقل من أصحاب المذاهب العلمانية . فربما يقول أحدهم معنى ذلك أن العقيدة الإسلامية عقيدة ظلامية رجعية تحارب العقل وتجعله أسيرا للنقل ؟ أين التفتح والانفتاح ؟ أليس للعقل شيء مباح ؟ إن الغرب تقدموا بالعقل ووصلوا إلى القمر وهيمنوا علينا ونحن في ذيل البشر؟ فأيهما يحكم على الأشياء بالحسن والقبح العقل أم النقل ؟

من المعلوم أن العقول تختلف في نظرتها إلى الأشياء حسنا وقبحا ، فما يراه عاقل حسنا أو خيرا قد يراه غيره قبحا أو شرا ، ففي الغرب المتحرر يرون اللواط والسحاق والشذوذ حقا من حقوق الإنسان ، والإسلام يراه قبحا وشرا فيه هلاك وأمراض لم تكن في سابق الزمان ، وكذلك الزنا وشرب الخمر حلال عندهم حرام عندنا ، ولو استقصينا أمثلة لما هم عليه من تشريعات مبنية على استحسانات عقلية واستبعادات برلمانية لطال الأمر وظهر الفرق والاختلاف ، فهل مسألة الحكم بالحسن والقبح على الأشياء في الإسلام مرده إلى النص المنقول فقط دون اعتبار للنظر المعقول ؟

والجواب هنا يتعلق بفهمنا للأحكام الشرعية التكليفية ؛ فالواجب والمستحب والمحرم والمكروه ، تلك الأربعة السيادة فيها للنقل أو القرآن والسنة ، النقل هو الذي يحكم هنا بحسن الأشياء وقبحها ، والعقل تابع للنقل فيها يؤيده ويعضده ، ولن يجد عاقل في فطرته ما يخالف الأحكام التكليفية أو يعارض الشريعة الإسلامية .

أما إذا قُدم العقل على النقل في الواجب والمستحب والمحرم والمكروه من الأحكام فسوف تظهر البدعة في الإسلام ، وسوف تتغير ملامح الشريعة وتصبح ألعوبة في يد المبتدع ، إذ أنه يزعم بقديمه العقل على النقل أن ما رآه بعقله أكمل من عقل رسول الله حين ارتضى لنفسه ﷺ ولأمته منهج الله في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح أو الخير والشر ، أو أنه يزعم أن ما رآه بعقله وعلمه المحدود أفضل للناس من علم الله وتوجيهه لعباده ، وهذا كلام لا يقبله عاقل منصف .

وأما عن دور العقل في الإسلام ومجاله في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح أو الخير والشر فهذا مقصور على المباح من الأحكام الشرعية فقط ، فالقيادة والسيادة هنا للعقل ، والنقل يؤيده ويعضده ويعاونه ويساعده ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث رافع بن خديج ﷺ أنه قال : (قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْل يَقُولُونَ : يُلَقِّحُونَ النَّخْل فقَال : مَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا : كُنَّا نَصْنَعُهُ ، قَال : لعَلَّكُمْ لوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا فَتَرَكُوهُ ، فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ ، قَال : فَذَكَرُوا ذَلِكَ لهُ ، فَقَال : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ)[1] ، وفي رواية أخرى عند مسلم أيضا من حديث أَنَسِ بن مالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فقَال : لوْ لَمْ تَفْعَلُوا لصَلُحَ ، قَال : فَخَرَجَ شِيصًا - أي بلحا لا يؤكل - فَمَرَّ بِهِمْ ، فقَال : مَا لنَخْلكُمْ ؟ قَالُوا : قُلتَ كَذَا وَكَذَا ، قَال : أَنْتُمْ أَعْلمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ[2] .

وهنا جعل الرسول ﷺ المرجعية في الحكم بالحسن والقبح إلى عقولهم واجتهادهم أو خبرتهم في الحياة ، فآرائهم مقبولة في المباحات من أمور الدنيا دون بقية الأحكام

---

(١) مسلم في كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي ٤/ ١٨٣٥ (٢٣٦٢) .

(٢) الموضع السابق (٢٣٦١) .

الشرعية أو التكليفات الدينية .

ومن ثم نقول للعقلاء من العلمانيين أتباع المنهج الاعتزالي وغيرهم : اصعدوا إلى الفضاء لتكتشفوا أسرار الكون وعظمة خالقه ، وأرسلوا المركبات الفضائية والتلسكوبات الالكترونية لتراقبوا أعداء الله بدلا من أن يراقبونا، وخذوا بأسباب القوة وسائر العلوم العصرية التي تنصروا بها دين الله ، لكن العيب ألا تفهموا من التطور الغربي إلا مجاهرة الله بالعصيان ، والتشبه بالغربيين في اتباع الشهوة وغرائز الحيوان ، فأنت أيها المتحرر الذي ترى في الغرب أسوة لك ، هل تأسيت بهم في علم مادي أم تلبست بانحلالهم وسميت ذلك تقدما حضاري ؟

والقصد أن المعتزلة نظرا لاعتمادهم على العقل والمبالغة الكاذبة في تقديسه عطلوا كثيرا من نصوص القرآن والسنة ، لاسيما النصوص الواردة في صفات الله كصفة الاستواء واليدين والعين ، وكذلك صفة المحبة والرضا والغضب والسخط ، ومن المعلوم أن المعتزلة تنفي كل أوصاف الله بحجة تمسكهم بالتوحيد ونفي التشبيه عن الله كما تقدم في الأصل الأول من أصولهم .

ولاعتمادهم على العقل أيضا طعن رؤساؤهم في أكابر الصحابة ، وشنعوا عليهم ورموهم بالكذب فقد زعم واصل بن عطاء : أن إحدى الطائفتين يوم الجمل فاسقة إما طائفة على بن أبي طالب وعمار بن ياسر والحسن والحسين وأبي أيوب الأنصاري أو طائفة عائشة والزبير ﷺ ، وردوا شهادة هؤلاء الصحابة ﷺ ، فقالوا : لا تقبل شهادتهم ، ومعلوم أن سبب الفتنة بين الصحابة في وقعة الجمل وصفين حقد السبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي [(١)] .

وبسبب اعتمادهم على عقولهم القاصرة دون هداية من ربهم ورفضهم الإتباع لنبيهم تعددت فرقهم وكثر اختلافهم ، فيكفى وفق مذهبهم أن يختلف التلميذ مع شيخه في مسألة ليكون هذا التلميذ صاحبَ فرقة قائمة بذاتها ، فأبو الهزيل العلاف له فرقة خالفه تلميذه النظام فكانت له فرقة ، فخالفه تلميذه الجاحظ فكانت له فرقة ، والجبائي له فرقة ، فخالفه ابنه أبو هشام عبد السلام فكانت له فرقة أيضا ، وهكذا يختلفون في

---

(١) الفرق بين الفرق ص١٠٠ بتصرف .

ضلالهم ويتنوعون في ابتداعهم .

قال أبو عبد الله بن الحسين الرازي : (اعلم أن المعتزلة سبع عشرة فرقة ، الفرقة الأولى الغيلانية أتباع غيلان الدمشقي ، والفرقة الثانية الواصلية أتباع واصل بن عطاء الغزال ، وهو أول من قال إن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر ولا منافق ولا مشرك ، والفرقة الثالثة العمرية أتباع عمرو بن عبيد ، والفرقة الرابعة الهزيلية أتباع أبي الهزيل العلاف ، والفرقة الخامسة النظامية أتباع إبراهيم بن سيار النظام ، والفرقة السادسة الثمامية أتباع ثمامة بن أشرس ، والفرقة السابعة البشرية أتباع بشر المريسي بن معمر بن عباد السلمي ، والمزدارية أتباع أبي موسى المزدار وهو تلميذ بشر والهشامية أتباع هشام بن عمرو القوطي ، وقد كان يمنع الناس أن يقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل لأنه لا يجوّز إطلاق اسم الوكيل على الله تعالى ، والجاحظية أتباع عمرو بن بحر الجاحظ ، والجبائية اتباع أبي على محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، والخياطية أتباع أبي الحسن عبد الرحيم الخياط ، وغيرهم الكثير والكثير)[1] .

وكل منهم له ما يخصه من الضلالات العقلية ، لكنهم يقولون جميعا بالأصول الخمسة التي تقدمت ، فهذا ملخص موجز عن المعتزلة وأصوله .

• كيف ظهرت البدعة الكبرى ؟

لما تأصلت فكرة الجهم عند المعتزلة في استقلال العقل بإثبات الصفات أو نفيها وتشبعوا بالرغبة في تعطيل النصوص وردها محتجين بأن إثباتها يدل على التشبيه وأنواع المحال ، وأن ظاهر النصوص باطل واعتقاده ضلال ، رتبوا على هذا الأصل نفي أوصاف الكمال ، فنفوا رؤية رب العزة والجلال وردوا الأخبار وأنكروا الآثار التي ثبتت في رؤية الله يوم القيامة ، وقالوا أيضا بنفي صفة الكلام عن الله ، وجعلوه عاجزا عن التكلم بالقرآن بحجة أنه لو كان متكلما في زعمهم لكان له فم ولسان ، وأن إثبات صفة الكلام تشبيه لله بالإنسان .

وقد استفحل أمرهم وكثر عددهم وانتشر في البلاد خبرهم ، ومن المؤسف أن خلفاء الدولة العباسية قربوهم وجعلوهم في أعلى المناصب القيادية متعللين بأنهم كانوا

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٤٠ .

يجادلون المخالفين مجادلة عقلية ، وكانوا يغلبون الزنادقة والشيعة والجبرية في كثير من المناظرات الكلامية وأن شيوخ الحديث تعجز عن ذلك .

وفي بداية القرن الثالث الهجري تصادق المأمون بن هارون - وهو من أبرز خلفاء الدولة العباسية - تصادق مع بعض دعاة المعتزلة ، وذلك قبل أن يكون خليفة المسلمين ، فقرب إليه رجلا يقال له بشر بن غياث المريسي ذا أصل يهودي ، وكان هذا الرجل قد نظر في صفات الله بالفكر الجهمي ، فغلب عليه وقال به وانسلخ من دواعي التقوى والإيمان وأعلن القول بخلق القرآن ودعا إليه حتى كان عين الجهمية في عصره ، وكان عالمَهم المقتدى بأمره ، فمقته أهل العلم وناظروه ، وحكم عليه بعضهم بالفسق وكفروه .

قال الإمام الشافعي رحمه الله عن هذا الجهمي : ناظرت بشر بن غياث المريسي فكان مما قال : القرعة قمار وهي حرام ، فذكرت له حديث عمران بن حصين في القرعة فبهت [(١)] ، وحديث عمران رواه مسلم وفيه : (أَنَّ رَجُلا أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلُوكِينَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَزَّأَهُمْ أَثْلاثًا ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً وَقَال لَهُ قَوْلا شَدِيدًا) [(٢)] ، وفي رواية أخرى : (أن رجلاً من الأنصار أوصى عند موته فأعتق ستة مملوكين) [(٣)] ، ومعلوم أن الوصية فيما دون الثلث ، ولذلك أجرى النبي ﷺ القرعة بينهم ، ومعنى قال له قولا شديدا أي أنكر فعله وكرهه ، والشاهد أن أبسط أمور السنة لا يعرفها بشر المريسي .

واختلط الخليفة المأمون أيضا برجل يقال له أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، وكان من أشد المتعصبين للمذهب الاعتزالي ، قربه المأمون واتخذه صاحبا ، ومن شدة تعلق المأمون به عظمه الشعراء نفاقا للخليفة حتى قال بعض الشعراء من بني العباس الذين تولوا المعتزلة :

رسول الله والخلفاء منا : ومنا أحمد بن أبي دؤاد .

فرد عليه بعض شعراء أهل السنة الذين أدركوا خطورة هذا الرجل وأمثاله فقال :

---

(١) تاريخ دمشق ٥١/ ٣٨٠ .

(٢) مسلم في كتاب الأيمان ، باب من أعتق شركا له في عبد ١٢٨٨/٣ (١٦٦٨) .

(٣) السابق نفس الموضع .

فقل للقاهرين على نزار : وهم في الأرض سادات العباد
رسول الله والخلفاء منا : ونبرأ من دعي بني إياد
وما منا إياد إذا أقرت : بدعوة أحمد بن أبي دؤاد [(١)] .

وكذلك الشاعر المشهور أبو تمام مدحه بكلام أقرب ما يكون إلى الشرك من كونه مدحا لمخلوق فقال :

أأحمد إن الحاسدين كثير : ومالك إن عد الكرام نظير
حللت محلا فاضلا متقادما : من المجد والفخر القديم فخور
فكل غني أو فقير فإنه : إليك وإن نال السماء فقير
إليك تناهى المجد من كل وجهة : يصير فما يعدوك حيث يصير
وبدر إياد أنت لا ينكرونه : كذاك إياد للأنام بدور
تجنبت أن تدعى إليك ممدة : وما رفعة إلا إليك تشير [(٢)] .

فانظر إلى هذا الكلام الذي يحمل المبالغة في تعظيم المخلوق وتشبيهه بملك الملوك الذي ليس كمثله شيء ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥] .

ومن شدة الترابط بين المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد والخليفة المأمون أشار على الخليفة أن يكتب على سترة الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ، بدلا من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، فأراد أن يحرف كلام الله لينفي وصفه بالسمع البصر ، تماما كما قال الجهم بن صفوان عن قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه:٥] ، قال : لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت [(٣)] .

وكذلك قرب المأمون إليه رجالا من المعتزلة حتى راوده على مذهبهم فأقنعوه وأصبح ألعوبة في أيديهم ، ثم نصحوه أن يأخذ على أيدي الناس ويلزمهم أن يقولوا

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣١٩ .
(٢) تاريخ بغداد ٤/ ١٤٥ .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٦ .

بقولهم توحيدا وإرضاء لربهم وإصلاحا لدينهم على زعمهم ، وقد وقع المأمون بن هارون في شباكهم ، وفرض على الناس بدعة جديدة لم تكن في أسلافهم ، وهي البدعة الكبرى بدعة القول بخلق القرآن .

• كيف ظهر القول بخلق القرآن ؟

تقوم فكرة الجهمية في القول بخلق القرآن على منهجهم في نفي الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنها صفة الكلام ، فهم زعموا أن الله لو كان متكلما لكان له فم ولسان ، ومن ثم لا بد من نفي صفة الكلام عنه طلبا للتوحيد .

وقد وصل الأمر ببعضهم إلى محاولته تحريف القرآن حتى لا يؤمن بتلك الصفة فقال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة : أريدك أن تقرأ هذه الآية : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] بنصب لفظ الجلالة ، وذلك ليكون موسى عليه السلام هو المتكلم ، أما الرب عنده فلا يتكلم ؛ لأن الكلام لا يكون إلا بفم ولسان حسب زعمه فقال أبو عمرو : هب أني وافقتك في ذلك ، فماذا تفعل بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:١٤٣] فبهت المعتزلي ؟ [(١)] .

ومعلوم عند السلف أن الله يتكلم بكيفية تليق بجلاله ، يعلمها هو ونجهلها نحن لأننا ما رأيناه وما رأينا له نظيرا ؛ فهو سبحانه كما قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، ولا يلزم من إثبات صفة الكلام التشبيه والتجسيم كما هو اعتقاد المعتزلة ، بل أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بعض المخلوقات تتكلم بدون فم أو لسان ، فقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥] ، فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم ، قد أنطقها الله كما أنطق كل شيء ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت:٢١] ، فالأيدي والأرجل والجلود تتكلم بلا فم يخرج منه الصوت المعتمد على مقاطع الحروف ، ولكن قياس الخالق على المخلوق قياس تمثيلي أو شمولي قياس فاسد لا يجوز في باب العقائد الغيبية .

كما أن صفة الكلام من لوازم الكمال وضدها من أوصاف النقص والله سبحانه

---

(١) السابق ١٦٨ .

وتعالى له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته ، ولهذا ذم بني إسرائيل لاتخاذهم عجلا إلها من دون الله ، وأول عيبة ذكرها الله له كونه لا يتكلم فقال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف:١٤٨] ، فكان عجز العجل عن الكلام من صفات النقص التي يستدل بها على عدم ألوهيته ، ومن ثم إذا كان الكلام وصف كمال لدى المخلوق فالخالق أولى بوصف الكلام والكمال منه ، وقد صدق ابن القيم في قوله :

وله الكمال المطلق العاري عن التشبيه والتمثيل بالإنسان .
وكمال من أعطى الكمال بنفسه أولى وأقدم وهو أعظم شان .
أيكون قد أعطى الكمال وما له ذاك الكمالُ أذاك ذو إمكان .
أيكون إنسانٌ سميعا مبصرا متكلما بمشيئة وبيان .
وله الحياة وقدرة وإرادة والعلم بالكلي وبالأعيان .
والله قد أعطاه ذاك وليس هذا وصفه فأعجب من البهتان .
بخلاف نومِ العبد ثم جماعِة والأكل منه وحاجةِ الأبدان .
إذ تلك ملزوماتُ كونِ العبد محتاجا وتلك لوازمُ النقصان .
وكذا لوازم كونه جسدا نعم ولوازم الأحداث والإمكان .
يتقدس الرحمن جل جلاله عنها وعن أعضاء ذي جُثمِان .
والله ربي لم يزل متكلما وكلامه المسموع بالآذان .
صدقا وعدلا أحكمت كلماته طلبا وأخبارا بلا نقصان .
ورسوله قد عاذ بالكلمات من لدغ ومن عين ومن شيطان .
أيعاذ بالمخلوق حاشاه من الإشراك وهو معلم الإيمان .
بل عاذ بالكلمات وهي صفاته سبحانه ليست من الأكوان [(١)] .

وقد أثبتت نصوص القرآن والسنة صفة الكلام لله ﷻ ، فالآيات والأحاديث التي

(١) وضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ١/ ٢٦١ .

لا حصر لها تدل على أن الله يتكلم متى شاء وإذا شاء وكيف شاء ، وأنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت يسمع ، سمعه جبريل من الله ﷻ ، وسمعه موسى عليه السلام ، وسمعه محمد ﷺ ، فلا عبرة بقول المعتزلة في زعمهم إن القرآن مخلوق خلقه الله ولم يتكلم به فإنهم يعارضون القرآن وما جاء في صريح النصوص كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣] ، وآيات القرآن أكثر من أن تحصى .

وقد بوب الإمام البخاري أبوابا كثيرة في إثبات كلام الربِّ ﷻ يوم القيامةِ مع الأنبياء وأهل الجنة وغيرهم ، وروى من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول اللهِ ﷺ قال : (إن آخِرَ أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخِرَ أهل النار خروجاً من النارِ رجلٌ يخرجُ حَبْواً ، فيقول له ربُّه : ادخل الجنةَ ، فيقولُ : رب الجنةُ ملأى فيقول له ذلكَ ثلاثَ مَرَّات ، فكلُّ ذلك يعيد عليه ، الجنة ملأى ، فيقول : إنَّ لكَ مثل الدنيا عشرَ مرار)[1] .

وعنده من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمهُ ربهُ ليس بينَهُ وبينَهُ ترجمان ، فينظرُ أيمنَ منهُ فلا يرى إلاّ ما قدَّمَ من عمله ، وينظرُ أَشْأَمَ منه فلا يَرَى إلا ما قدَّمَ ، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلاَّ النارَ تِلقاء وجهه ، فاتقُّوا النار ولو بِشقِّ تمرة)[2] .

وروى أيضا من حديث صفوان بنِ مُحْرِزٍ أنَّ رجلاً سأل ابن عُمر رضي الله عنه : كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : (يدنو أحدُكم من ربِّه حتى يضع كنفه عليه - يعني ستره - فيقول : أعملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملتَ كذا وكذا؟ فيقول : نعم ، فيقررهُ ثم يقول : إني سَترتُ عليك في الدنيا ، وأنا أغفِرها لك اليوم)[3] .

وفي كلام الله مع أهل الجنة روى البخاري من حديث أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : (إن اللهَ يقولُ لأهل الجنةِ : يا أهل الجنةِ ، فيقولون : لبيك ربنا

---

(١) البخاري في التوحيد ، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٢٧٢٨/٦ (٧٠٧٣) .
(٢) الموضع السابق ٢٧٢٩/٦ (٧٠٧٤) .
(٣) الموضع السابق (٧٠٧٦) .

وسعدَيك ، والخير في يَدَيْك ، فيقول : هل رضيتُم ؟ فيقولون : وما لنا لا نَرضى يا رب وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقِك ، فيقول : ألا أُعطيكُم أفضَل من ذلك ؟ فيقولون : يا ربّ وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسخَطُ عليكم بعدَهُ أبدا) (١) .

ومن حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان يوماً يُحدثُ وعندَه رجلٌ من أهل الباديةِ : أنَّ رجلاً من أهل الجنة استأذَنَ ربَّهُ في الزَّرع فقال : أو لستَ فيما شئت؟ قال : بلى ولكني أحبُّ أن أزرعَ ، فأسرعَ وبذر ، فتبادَرَ الطَّرْفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويرهُ أمثال الجبال ، فيقول اللهُ تعالى : دونَك يا ابن آدم فإنه لا يُشبعُك شيءٌ ، فقال الأعرابيُّ : يا رسول الله لا تَجِد هذا إلاَّ قُرشياً أو أنصارِياً فإنَّهم أصحابُ زَرْعٍ فأمَّا نحن فَلسنا بأصحابِ زَرْعٍ ، فضحِك رسولُ الله) (٢) .

وفي هذا أعلى دلالة وأبينها وأوضحها على ثبوت صفة الكلام لربنا ﷻ وأنه يتكلم إذا شاء بما يشاء وكيف يشاء بكلام يسمعه من يشاء ، وقد تواترت الأدلة تواترت على أنه سبحانه يتكلم إذا شاء بما شاء وكيف شاء ، وأن كلامه يسمع وأن القرآن الكريم الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات هو عين كلامه حقا لا هو من تأليف ملك ، ولا هو من تأليف ملك بشر (٣) .

ولما أصر أبناء الجهمية من المعتزلة على نفي صفة الكلام عن الله تبادر إلى الذهن سؤال هام وهو : إذا كان الله لا يتكلم فهذا القرآن كلام من ؟ ومن الذي تكلم به ؟ فقالوا تكلم به محمد ، ولما كان محمد مخلوقا فكلامه إذا مخلوق ، وقد خلق الله محمدا وخلق كلامه كما خلق سائر الأشياء ، أما هو سبحانه فلا يتكلم ولا يكلم أحدا من خلقه ، وقد تخبط بعضهم فمرة ينسبونه إلى جبريل ! ومرة ينسبونه إلى محمد ﷺ ! ومرة يزعمون أن الله كان ولم يكن عرب ولا كلام عربي فالله خلق القرآن كما خلق العرب ! وغير ذلك من ألوان التخبط في الأدلة والتضارب في القول ، وقد عبر ابن القيم عن ذلك في نونيته ، فقال عن تضاربهم وتهافت قولهم مستهزئا بعقيدتهم :

---

(١) البخاري في التوحيد ، باب كلام الرب مع أهل الجنة ٢٧٣٢/٦ (٧٠٨٠) .

(٢) الموضع السابق ٢٧٣٣/٦ (٧٠٨١) .

(٣) انظر معارج القبول ٢٤٩/١ بتصرف ، وانظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٦/ ٥٢٢ .

إن الذي جاء الرسول به لمخلوق ولم يسمع من الديان .

والخلف بينهم فقيل محمد أنشاه تعبيرا عن القرآن .

والآخرون أبوا وقالوا إنما جبريل أنشاه عن المنان .

وتكايست أخرى وقالت إنه نقل من اللوح الرفيع الشان .

فاللوح مبدؤه ورب اللوح قد أنشاه خلقا فيه ذا حدثان .

هذي مقالات لهم فانظر ترى في كتبهم يا من له عينان

لكن أهل الحق قالوا إنما جبريل بلغة عن الرحمن .

ألقاه مسموعا له من ربه للصادق المصدوق بالبرهان [(١)] .

قال عبد الباقي بن إبراهيم : (والقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله ، معجز بنفسه لجميع الخلق غير مخلوق ، ولا حال في شيء ، ولا مقدور على بعض آية منه ، فمن قال القرآن مخلوق أو محدث أو حادث أو وقف فيه شاكا أو ادعى قدرة أحد على مثله كفر ، ومن قال لفظي بالقرآن مخلوق أو القرآن بلفظي مخلوق ، فإن كان يدعو إليه ويناظر عليه فهو محكوم بكفره بنص أحمد ﷺ على ذلك صريحا في مواضع ، وإن كان مقلدا فهو فاسق) [(٢)] .

ولما وقع الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد في شباك المعتزلة وتبنى قولهم في خلق القرآن فرض على الناس تلك البدعة وأحدث انقساما شديدا في الأمة فصار الناس وقتها على فريقين :

الفريق الأول : فريق يتابع الخليفة المأمون على رأي المعتزلة وينفون صفة الكلام عن الله ويعتقدون أن القرآن مخلوق ، ومن قال بغير ذلك فهو عندهم كافر مشبه وضال مضل يستوجب السيف والقتل ، وهؤلاء هم أهل القوة والمكانة أتباع الخليفة فالمأمون استخدم قوة الدولة في تأييد هذا الرأي وإلزام الناس بتلك البدعة ، وأصبحت آراء المعتزلة قضية على رأس القضايا في اهتمامات الدولة ، بل من أولى الاهتمامات في

---

(١) توضيح المقاصد وتصحيح ١/ ٢٦٥ .

(٢) العين والأثر في عقائد أهل الأثر ص٣٢ .

الخلافة الإسلامية ، والمسألة لم تعد كلاما فاسدا يطوف على ألسنة الناس بين متأفف منكر ومستحسن مؤيد ، بل أصبح الأمر خطرا داهما يهدد كافة المسلمين في كل مكان ويواجه فيه أضعف الناس قوة الدولة والسلطان .

الفريق الثاني : فريق مستضعف يمثلهم علماء أهل السنة وعامة الناس من الضعفاء وغيرهم ، وهؤلاء يقولون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويؤمنون بما ورد من صفات الله في الكتاب والسنة ، من غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف وهم بدافع إيمانه لا يجرؤون على تحريف الكلم عن مواضعه بالتأويلات الممقوتة التي دعاهم إليها أهل البدعة [1] .

غير أن المواجهة قد اشتدت بين الفريقين إلى أن امتحن فيها الناس أشد امتحان فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ، ولا مؤذن ولا معلم ، إلا أخذ بالمحنة وهرب كثير من الناس فرارا بدينهم ، وملئت السجون بمن أنكر على أهل البدعة من المعتزلة أتباع الخليفة ، وقد وصل التحدي إلى أن أمر الخليفة المأمون ، أن يكتب على أبواب المساجد : لا اله إلا الله رب القرآن وخالقه ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد من الجلوس للفتيا في المساجد أو تبليغ العلم ، لأنهم صرحوا بمخالفته فاعتبر المأمون ذلك منهم معارضة لسياسة الدولة [2] .

---

(١) انظر المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١١/١٨ بتصرف .

(٢) طبقات الحنفية ١/٣٩ بتصرف .

الفصل الثاني

رسالة المأمون في إلزام الأمة بخلق القرآن وبيان ما فيها من زور وبهتان

ظهر ابتلاء جديد في ساحة المواجهة بين أهل السنة ودعاة البدعة ، بين أهل العلم الأقوياء بالحق المستضعفين في الأرض وبين الخليفة الظالم المتأسد بسلطانه والمغتر بأعوانه من أهل البدعة والضلال ، هذا الابتلاء أصبح موجها لكل فرد من أفراد الأمة سواء من الخاصة أو العامة ، فقد أوجب الخليفة على كل مسلم أن يقر بالبدعة الكبرى ، ويقول بخلق القرآن وينكر الأخبار والآثار تحقيقا لسلامته إن شاء البقاء على قيد الحياة وإلا سيواجه قوة الدولة بمفرده ، وقد نصر الله سنته وأعز دينه بالإمام أحمد بن حنبل ، هذا الحبر الجليل الذي وقف لله وقفة يضرب بها المثل في الثبات على الحق والتمسك بالسنة حتى قيل : أبو بكر ليوم الردة ، وعمر ليوم السقيفة وأحمد ليوم البدعة [١] .

قال الميمون : قال لي على بن المديني بعدما امتحن أحمد بن حنبل يا ميمون : ما قام أحد في الإسلام أحد مثل ما قام أحمد بن حنبل ، قال ميمون : فعجبت من هذا عجبا شديدا وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام ، فحكيت له مقالة على بن المديني فقال : صدق ، إن أبا بكر وجد له يوم الردة أنصارا وأعوانا ، وإن أحمد لم يكن له أنصار ولا أعوان [٢] .

بدأت المحنة الحقيقية سنة ٢١٨هـ عندما أرسل المأمون كتابه الشهير الذي طلب فيه من الولاة أن يختبروا أهل العلم في القول بخلق القرآن ، أرسل كتابه الشهير إلى إسحاق بن إبراهيم وإلي الخليفة على بغداد يلزم الناس فيه بأن يقروا بخلق القرآن تأييدا لرأي المعتزلة فجاء فيه : (أما بعد فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ومواريث النبوة التي أورثهم وأثر العلم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠١ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/٣٣٦ .

الذي استودعهم والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ..) [١] .

من المعلوم أن الاجتهاد المحمود هو الاجتهاد المبذول لخدمة دين الله بعد تقديم النصوص فلا اجتهاد مع نص ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ﴾ [الأحزاب:٣٦] .

لكن الاجتهاد الذي بذله المأمون ودعا إليه اجتهاد سلطان سعى لهدم دين الله وهو يظن أنه يحسن صنعا ، فإذا وصل الأمر بالخليفة إلى أن يعتقد أن آراء المعتزلة هي عين التوحيد ، وأن القول بخلق القرآن هو الحق ، وينفي صفة الكلام عن الله ويشبهه بالعاجز ، ويرد ما جاء في الكتاب والسنة ، ثم يدعو إلى ذلك ويسميه عملا بالحق في الرعية فهذا شر البلية ، فلو مات المأمون على عقيدة العجائز من العامة لكان خيرا له .

قال المأمون في رسالته الشهيرة : (والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة - ممن لا نظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق - أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكير والتذكر) [٢] .

• اعتقاد العامة خير من اعتقاد المعتزلة .

وصف المأمون عامة المسلمين في رسالته بالجهالة والضلالة وأنهم حشو وسفلة ، لا قيمة لاعتقادهم عنده ، وأنهم لا يحسنون النظر والاستنباط لضعف آرائهم ونقص عقولهم وعجزهم عن التفكير ، ووصف نفسه ومن كان على منهجه من المعتزلة بأنهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٥/ ١٨٦ .

(٢) السابق ٥/ ١٨٧ .

العلماء وأهل الحق وأساس الأمة ولديهم علو الهمة لقوة آرائهم بزعمه وكمال عقولهم بوهمه ، ويا ليت المأمون كان من العامة ولم يدخل نفسه في حظيرة البدع ووصمة العار التي لحقته عبر صفحات التاريخ ؛ فمعلوم أن عامة الناس على الإيمان الفطري أو الإيمان المجمل الذي يقتضي التسليم والتعظيم لأمر الله ، والتصديق بكل خبر جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله الله ﷺ ، روى مسلم من حديث سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ أنه قال : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أحدا بَعْدَكَ ؟ وَفِي رواية لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحدا غَيْرَكَ ؟ قَالَ : قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ)[1] .

ودلالة الحديث واضحة في دعوته أن ينفذ كل أمر بلغه في الكتاب والسنة ، وأن يصدق كل خبر ورد فيهما ويكفيه ذلك ، ولم يطالبه أن يقول بأن القرآن مخلوق وأنه من الضروري أن يكون على نهج المعتزلة حتى يصح إيمانه ، ومعلوم أن عامة الأمة في موضوع الإيمان يسيرون على نصيحة النبي ﷺ لسفيان ، يعظمون كتاب الله بتصديق خبره كلما سمعوه ، وينفذون أمره كلما علموه ، وهذا هو الإيمان المجمل .

وقد ذكر ابن تيمية أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد غير متماثل في حق العباد والإيمان الذي يجب على شخص لا يجب مثله على كل شخص ، فإن اتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد ، وأوجب على أمة محمد ﷺ من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن ، والإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول مفصلا ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملا ، فإنه لابد في الإيمان من تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر ، لكن من صدق الرسول ﷺ ومات عقب ذلك دون أن يعرف تفاصيل الأحكام والأخبار لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك[2] .

وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان

---

(١) مسلم في الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨) .

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ١٩٦ .

المجمل ، لموته قبل أن يبلغه شيء آخر [(١)] .

وأيضا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول ﷺ وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به ، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة ، فصار يجب من الإيمان تصديقا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين [(٢)] .

فالعامة إذا ليس كما وصفهم المأمون أهل جهالة وضلالة وأنهم حشو وسفلة ولا قيمة لهم وأنهم لا يحسنون النظر والاستنباط لضعف آرائهم ونقص عقولهم ، بل هم أعلم بالله من المأمون وأمثاله من المتكلمين والنظار .

وكثير ممن سلك نهج المأمون وجدوا طريق العقل غير مأمون فتركوا جميع ما قرروه ورجعوا إلى دين العامة الذي عليه العجائز ، فهذا الإمام فخر الدين الرازي في آخر كتابه أقسام اللذات الذي صنفه في آخر عمره قال : يا ليتنا بقينا على العدم الأول وليتنا ما شهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، ثم قال :

نهاية أقدام العقول عقال : وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا : وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا : سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم قد رأينا من رجال ودولة : فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها : رجال فزالوا والجبال جبال

اعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق ، رأيت الأصوب والأصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم والفرقان الكريم ، وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام أجسام السماوات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل ، لقد تأملت

---

(١) السابق ٧/ ١٩٦ .

(٢) السابق ٧/ ١٩٦ .

الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : ﴿ الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر:١٠] ، واقرأ في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] وقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٧] ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي [١] .

وقال آخر : (اضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندي منها شيء) [٢] .

وكذلك قال أبو المعالي الجويني : (يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به) [٣] .

وقال عند موته : (لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي) [٤] ، ومن ثم فإن العامة أعلم بالله ،أشد تعظيما لكتاب الله من المأمون المبتدع وفرقته أهل الضلال .

ومما يدل على اعتقاد العامة في أن القرآن كلام الله المنزل على محمد ﷺ وليس من كلام البشر ، هذا الفرق الواضح بين تعظيمهم للقرآن وهو بين أيديهم يقرؤونه على طهارة ، وخوفهم من مسه وهم على جنابة ونظرتهم لأي كتاب من تأليف البشر ، فلا وجه للمقارنة على الإطلاق ، فمن هم فأهل الجهالة والعمى الذين وصفهم المأمون بأنهم أهل ضلالة عن حقيقة دينه وتوحيد الله والإيمان به ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ؟

إن أهل الجهالة هم الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وارتضوا غيره من

---

(١) نقلا عن شرح قصيدة ابن القيم ٢٠٨/١ .

(٢) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة ٢٨/٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٧.

(٤) السابق ص ٢٢٧.

أحكام العقول الفاسدة بديلا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد:١٦] .

نتابع كلام المأمون في رسالته لامتحان الناس والسبب في وصفه لهم بالجهالة والضلالة ، قال : (وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه وقد قال الله ﷻ في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف:٣] ، فكل ما جعله الله فقد خلقه وقال : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] ، وقال ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه:٩٩] فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها ، وقال : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١] ، وكل محكم مفصل فله محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه)[١] .

• حجة المأمون في القول بخلق القرآن .

ذكرنا أن مذهب المأمون والمعتزلة أنهم ينفون أوصاف الله ﷻ تحت مسمى التوحيد ونفي التشبيه ، ولما أصرت المعتزلة على نفي صفة الكلام وقعوا في أعقد إشكال ، إذا كان الله لا يتكلم فمن الذي تكلم بهذا القرآن ؟ فأداهم فكر الشيطان الذي عبث بعقولهم إلى القول بأن الذي تكلم به محمد ﷺ ، ومحمد مخلوق فكلامه مخلوق ، فهذا القرآن مخلوق خلقه الله كما خلق سائر الأشياء .

وهم لم يستندوا في اعتقاد هذا الكلام إلى قرآن أو سنة ، وليس منهجهم هو الاعتماد عليهما في الأساس ، ولكنهم لما أصلوا أصولهم وسلموا لما قررته عقولهم وساقتهم إلى الضلال أهواؤهم ، ووجدوا أن عامة الناس لن يسلموا لهم ، أو يعتقدوا في كلامهم إلا بدليل من قرآن أو سنة ، نظروا في كتاب الله ليجدوا دليلا يقوي آراءهم وليخدعوا العامة بأنهم يعتمدون على الكتاب والسنة ، وهم في حقيقة أمرهم يضربون بكلام ربهم وسنة نبيهم عرض الحائط ، فاستدلوا بالآيات التي كتبها المأمون في رسالته

---

(١) السابق ٥/ ١٨٧ .

وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف:٣] ، فقالوا كل ما جعله الله فقد خلقه ، وهذا كلام باطل يدل على جهلهم بكتاب الله ﷻ ولغة العرب ؛ لأن جعل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف:٣] ، ليست بمعنى خلق ، فلفظ جعل قد يضاف إلى الله ﷻ وقد يضاف إلى المخلوق ، فإذا أضيفت إلى الله ﷻ فهي على معنيين :

المعنى الأول : هو المعنى الكوني ويعني الخلق والتقدير والتكوين والتدبير الذي يقع لا محالة ، كقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ:٦:١٣] ، وكقوله ﷻ : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] ، وقوله تعالى أيضا : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُل شيء حَي أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠] ، وقوله : ﴿ وَجَعلنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣١] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:٣٢] .

المعنى الثاني : هو المعنى الشرعي الديني الذي يحتوي منهج المكلفين وشريعة المسلمين ، ويبين طريق عبادتهم وصلاح دنيتهم ، وهذا قد يقع وقد لا يقع ، ومعنى جعل هنا التشريع ووضع التكليف الديني الذي يحتوي أحكام المكلفين وشريعة المسلمين ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء:٩٠] ، أي لم يجعل لكم حكما شرعيا في قتالهم ، وكقوله تعالى أيضا : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة:٤٨] ، وكقوله ﷻ : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٣] ، وكقوله : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ مثل نَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢] .

ومن هذا المعنى الشرعي ما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣] ، أي أنزل كلامه وشريعته بلغة العرب ، وقد بين الله السبب في ذلك فقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٤] ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمان وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] .

لكن الخليفة المأمون بن هارون لم يدرك تلك القضية وأبعادها فأداه ذلك أن يلبس الأمور ويخلط معاني الجعل فجعل الكوني بالمعني الشرعي والشرعي بالمعني الكوني فقال في رسالته : (وقد قال الله ﷻ في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف:٣] ، فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام:١]) ، فجعل في الآية الأولى التي أوردها بمعنى شرع وفي الآية الثانية بمعنى خلق ، وأراد المأمون أن يسوي بينهما .

وقد تضاف جعل إلى الله ﷻ وتشمل المعنيين معا ، الكوني الشرعي ، كقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة:١٢٥] ، وكقوله ﷻ : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٩٧] . أما جعل إذا أضيفت لمخلوق فلا تكون بمعنى خلق وليست بالمعنى الكوني أو الشرعي ، كقوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. ﴾ [التوبة:١٩] فجعل هنا لا يمكن أبدا أن تكون بمعنى خلق ، فالإنسان لا يخلق سقاية الحاج ولا يشرع حكمها ولكن يتولها ويتولى أمرها ، ومن ثم ليس كل ما جعله فقد خلقه كما زعم المأمون ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤] ، وقال : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩] ، وقوله : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] ، وقال : ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٣٤] .

وكذلك جعل إذا تعدت إلى مفعول واحد كانت بمعنى خلق كما في قوله : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] ، وإذا تعدت إلى مفعولين لم تكن بمعنى خلق كقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [النحل:٩١] وقال : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤] ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣] ، فإنها تعدت إلى مفعولين .

أما احتجاج المأمون في رسالته بقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] فيحتمل أنه يستشهد بأن جعل بمعنى خلق في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣] ، فإن كان يقصد ذلك فهذا باطل لأنه خلط وتلبيس لمعاني الجعل حيث جعل الكوني بالمعنى الشرعي والشرعي بديلا عن المعنى الكوني وأراد أن يسوى بينهما .

ويحتمل أنه يقصد أن القرآن موجود في الأرض وهي مخلوقة فالقرآن مخلوق ، وهذا باطل أيضا ، لأن المعلوم أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة:٧٨] ، فالقلم واللوح مخلوقان لله ، لما روى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث عُبَادَة بن الصَّامِتِ أنه قال لابْنِهِ : (يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإيمان حتى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله تعالى القَلَمَ فقال له : اكْتُبْ ، فقَال : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُب ؟ قال : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : مَنْ مَاتَ على غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي) [(١)] ، فالقلم واللوح مخلوقان لله ، أما كلامه المكتوب في اللوح المحفوظ فهو مما تكلم الله به ، وكلامه صفة من صفاته اتصف بها في الأزل ، فكما أن الله أول بذاته قبل كل شيء ، فهو أيضا أول بصفاته قبل كل شيء .

وكذلك يقال في القرآن الذي بين أيدينا ، الأوراق والحبر والقلم مخلوقات خلقها الله أما كلام الله المكتوب في القرآن فهو مما تكلم الله به ، وكلامه صفة من صفاته اتصف بها في الأزل ، فكما أن الله أول قبل كل شيء بذاته ، فهو أيضا أول قبل كل شيء

(١) أبو داود في السنة ، باب في القدر ٦٣٧/٢ (٤٧٠٠) ، صحيح الجامع (٢٠١٧) .

بصفاته فلا حجة لهم في استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] .

ولذلك أدرك بعض اليهود بهتان حجة المأمون ، فقد اختصم يهودي ومسلم إلى بعض القضاة من القائلين بخلق القرآن ، فحكم القاضي على المسلم باليمين وضرورة أن يحلف على صدقه وبراءته ، فقال اليهودي : لا بأس حلفه ، فقال المسلم أحلف بكتاب الله الذي لا إله إلا هو ، فقال اليهودي : حلفه بالخالق لا بالمخلوق ، فإن يزعم أن القرآن مخلوق ، فحلفه بالخالق وظهر بهتانه [1] .

أما استدلال الخليفة لمذهب المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه:٩٩] ، وزعمه أن القرآن قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها ، فقد ذكرنا أن القرآن مكتوب في اللوح قبل وجود الخلائق ، وقبل كتابته في اللوح كان في علم الله ، وعلم الله صفة أزلية أولية ، قائمة بذات الله اتصف بها في الأزل ، ولذلك لما ناظروا الإمام أحمد في حضرة المعتصم ، قال له عبد الرحمن بن إسحاق : ما تقول في القرآن ؟ فقال الإمام أحمد : ما تقول في علم الله ؟ فسكت عبد الرحمن ولم يتمكن من الجواب ، فقال أحمد : القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فقال عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ، فقال الإمام أحمد : كان الله ولا علم ، فسكت عبد الرحمن [2] .

ولذلك أيضا فإن المعتزلة يصرون على أن القرآن كلام الرسول ﷺ وأن الله لم يتكلم به محتجين بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة:٤٠] ، ولفظ الرسول ذكر في الآية معرفا بأنه رسول ، والرسول مبلغ عن مرسله ، فلم يقل إنه قول ملك أو نبي ، فعلمنا أنه بلغه عمن أرسله به ، لا أنه أنشأه من جهة نفسه ، وأيضا الرسول في إحدى الآيتين في سورة الحاقة أو التكوير هو جبريل ، وفي الأخرى محمد ﷺ فإضافة القول إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ ، إذ لو اخترعه أحدهما أو أحدثه أو ألفه امتنع ذلك على الآخر ، وأيضا فقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير:٢١] ، فيه وصف الرسول بأنه أمين وهذا

---

(١) خلق أفعال العباد ص٤٣ بتصرف .

(٢) حلية الأولياء ٩/ ١٩٨.

دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه بل هو أمين على ما أرسل به يبلغه عن مرسله [(١)] .

وأيضا فإن الله ﷻ قد كفر من جعل القرآن قول البشر وتوعده بسقر ، ومحمد ﷺ بشر فمن جعله قول محمد فقد كفر ، قال تعالى عمن زعم أنه سحر أنشأه محمد ﷺ من عنده : ﴿ كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ [المدثر:١٦/٢٨] ، فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول إنه قول بشر أو جني أو ملك [(٢)] .

كما أن الكلام كلام من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا ، فمن سمع قائلا يقول : أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي ، قال : هذا شعر حافظ إبراهيم ، ومن سمع قائلا يقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى قال : هذا حديث للرسول ﷺ ، ومن سمع قائلا يقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة:٢/٣] ، قال : هذا كلام الله ، لو كانت لديه معرفة سابقة وإلا قال : لا أدري كلام من هذا ؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لرمي بالكذب ، ولهذا من سمع من غيره نظما أو نثرا قال له : هذا كلام بديع ، كلام من هذا ؟ هذا كلامك أو كلام غيرك ؟ [(٣)] .

قال الإمام أبو حنيفة : (القرآن في المصاحف مكتوب وفي القلوب محفوظ وعلى الألسن مقروء وعلى النبي منزل ولفظنا بالقرآن مخلوق - يقصد حركة اللسان التي تتم لإخراج الحروف - والقرآن غير مخلوق ، وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه السلام وغيره وعن فرعون وإبليس فان ذلك كلام الله إخبارا عنهم ، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق ، والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته ، وصفاته كلها خلاف صفات

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٨ .

(٢) السابق ص ١٦٨ .

(٣) السابق ص ١٦٩ .

المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويري لا كرؤيتنا ويتكلم لا ككلامنا)[١] .

أما استدلال الخليفة المأمون لمذهب المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١] ، وحجته أن كل محكم مفصل له محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه .

وهذا استدلال باطل لأنه ما من متكلم إلا وكلامه فيه إجمال وتفصيل وعموم وخصوص ، وغير ذلك من أنواع الكلام ، فهل كل متكلم من البشر أو غيرهم خالق لكلامه ؟ ثم ما علاقة ذلك بكونه يتكلم أو لا يتكلم ؟! فهم لو قالوا إن الله يتكلم ولا ندري كيف يتكلم لاهتدوا إلى الصواب كما اهتدى السلف الصالح ولكنهم رفضوا الإيمان بصفة الكلام أصلا وكذبوا بالآيات التي تدل على ثبوت الصفة لله ، فقالوا لا يتكلم ولا يكلم وشبهوه بالأبكم تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

قال الخليفة المأمون عن علماء السلف الصالح : (ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم)[٢] ، وهذا زور وبهتان فلم يرد في القرآن والسنة ما يدل على صدق البدعة التي دعت إليها المعتزلة في نفي الصفات والقول بخلق القرآن .

قال المأمون : (ثم أظهروا مع ذلك ، أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وأغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم تمثلا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم)[٣] .

• ادعاء المأمون أن أهل السنة يكفرون المعتزلة .

زعم الخليفة المأمون في رسالته أن أهل السنة والجماعة يكفرون المعتزلة ، وهذا زعم

---

(١) السابق ص ١٦٩ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٥/ ١٨٦ .

(٣) السابق ٥/ ١٨٧ .

باطل ، فهم لا يكفرون إلا من كذب منهم بآيات الكتاب صراحة ، أو قامت عليه البينة في أن قوله تكذيب لكلام الله وأصر على ما هو فيه ، ولذلك لما حمل الإمام أحمد من دار الخلافة بعد أن جلدوه ، وحضرت صلاة الظهر صلى معهم ولم يكفرهم فيما اعتقدوه ، لأنه يعلم أنهم أهل جهالة بالله وعمى عنه [(١)] .

وانظر إلى تحامل الخليفة على أهل السنة ووصفه لهم في رسالته بأبشع الأوصاف لأنهم عارضوه وتمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فحاول أن يفصِّل لهم تهمة تبرر اعتقالهم وعقابهم ، وهي زعمه أنهم يستترون بالدين من خلال إصرارهم على هذا الاعتقاد لطلب السلطة والرياسة ، ثم يقول عن علماء السلف : (حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم) [(٢)] .

يشير المأمون بن هارون إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا المُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٦] ، ومعنى الآية أن الله ابتلى المؤمنين بالجهاد ليمحص أهل الحق ، ويميز الذين ناصروا الله ورسوله ظاهرا وباطنا ممن نافقوا وناصروا الله في الظاهر فقط ، أما الباطن فقد اتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة يعني بطانة من الكافرين والمشركين يوالونهم على الكفر ويفشون إليهم أسرارهم بعداوة المسلمين ، فالمأمون يشبه المعتزلة ودعوتهم إلى ما يسمى بالتوحيد ونفي الصفات وما أحدثوه في الأمة من فتن ومنازعات يشبههم بالمجاهدين الأولين من الصحابة في المعارك والغزوات لإعلاء راية التوحيد والقضاء على الشركيات ، ويشبه علماء السلف بالمنافقين الذين يتخذون وليجة من دون المؤمنين فينافقون الخليفة في الظاهر ويدعون الناس في الباطن إلى خلاف ما يعتقدون ، فأي عمى أصابه حين انقلبت لديه الموازين وأصبح الباطل حقا والحق باطلا .

ثم قال المأمون عن علماء السلف : (فقُبلت بتزكيتهم لهم شهادتَهم ، ونُفِّذت أحكامُ

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٤ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٥/ ١٨٦ .

الكتاب بهم على فساد نياتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التي إليها أُجّروا وإياها طُلبُوا في متابعتهم والكذبِ على مولاهم ، وقد أُخِذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد:٢٤])[1] .

لقد وصف السلف بأنهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون وأن المعتزلة هم أهل البصيرة الذين يفهمون ويعقلون فمن الأولى بذلك الوصف؟ الأولى بذلك هم أهل البدعة من المعتزلة ومن شايعهم ، فهم اعتمدوا عقولهم وأهوائهم حجة وحيدة في وصف ربهم ، وأوجبوا عليه أن يتصف بكذا وكذا مما استحسنوه ولا يتصف بكذا وكذا مما قبحوه ، وقد نزه الله تعالى نفسه عن وصف العباد له واستثنى الوصف الذي بلغه عن الله المرسلون ، فقال سبحانه وتعالى في مثل قول المأمون بن هارون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ على المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الصافات:١٨٢] .

فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الظالمون ، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوا به رب العالمين ، وأنهم لم يكونوا مشبهين ولا معطلين ، وإنما كانوا موحدين مثبتين كل ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ ، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد فقال : ﴿ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الصافات:١٨٢] ، فلولا أن الله ﷻ عرفنا بنفسه في كتابه وفي سنة رسوله ما عرفناه ﷺ ، ولو تركنا لعقولنا كما أراد الخليفة والمعتزلة لضل الناس في معرفة ربهم .

وقد ومضى خير القرون من الصحابة والتابعين على ما كان عليه رسول الله ﷺ كلهم بنبيهم محمد ﷺ مقتدون وعلى منهاجه سالكون ، ولم يبتدعوا كما ابتدع المأمون بن هارون ، بل هم أصحاب البصيرة وهم خير القرون يقرؤون القرآن ويتدبرون معناه ويؤمنون به ويعملون بمقتضاه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ على بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] ، ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه فبعث بعلوم الأولين والآخرين ولم يدع إلى

---

(١) السابق ٥/ ١٨٨ .

هذه البدع التي يسميها المأمون توحيدا وجهادا [(١)].

قال المأمون عن علماء السلف : (فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة ، المنقوصين من التوحيد حظا ، والمبخوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله) [(٢)].

انظر مدى تمسك المأمون بمذهب المعتزلة وكيف غرسوا فيه هذا الاعتقاد إلى درجة أنه يعتبر المخالفين له من السلف هم شر الأمة ورؤوس الضلالة ، وأنهم لا إيمان لهم ولا توحيد ، وإنما هم أولياء الشيطان الذين يتكلمون بلسان إبليس .

لقد أسهمت بطانة السوء من المعتزلة في إضلال الخليفة وصاروا كالأفعى التي بثت سمها في قلبه ، حتى ظن أن قولهم في نفي الصفات هو الحق الذي لا تشوبه شائبة وأنه منتهى التوحيد الذي يضبط به نوعيات العاملين لديه في مؤسسات الدولة ، ومن ثم أوجب على أولي الأمر اختيار البطانة الصالحة من أهل العلم حتى يتم بزعمه صلاح الراعي والرعية .

قال المأمون عن علماء السلف الصالح : (وهم أحق من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد - يقصد توحيد المعتزلة - ومن عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلا ، فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بأن يسألوا من يحضرهم عن علمهم في القرآن ، وأن يتركوا إثبات شهادة من لم يقر بأنه

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٩ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٥/ ١٨٦ .

مخلوق محدث والامتناع من توقيعها عندهم)[١].

أي دليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ على أن الشاهد عند أداء الشهادة يمتحن في خلق القرآن ، فإن أقر بأن الله يتكلم ردت شهادته وإن اعتقد اعتقاد الخليفة بأن الله لا يتصف بالكلام قبلت شهادته ؟ أليست تلك بدعة نظير لها ولا يختلف عليها اثنان ؟ فمن هم أهل البدعة والجهالة والعمى ؟ لقد صدق قول القائل السلفي في الخليفة المأمون :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل : لمن يقول كلام الله مخلوق

ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر : ولا النبي ولم يذكره صديق

ولم يقل ذاك إلا كل مبتدع : على الرسول وعند الله زنديق

يا قوم أصبح العقل من خليفتكم مقيدا وهو في الأغلال موثوق[٢].

ولما ولى الخليفة المأمون بشر بن الوليد الكندي أمور القضاء بعد أن أقر بمذهب المعتزلة في خلق القرآن ، كان إذا جاءه الشاهد في قضية ما سأله عن كلام الله وخلق القرآن ، هل الله يتكلم أم لا ؟ فإن قال بأنه يكلم رد شهادته ، وإن قال لا يتكلم وشبهه بالأبكم قبل شهادته ، فجاء رجل مرة ليشهد ، فسأله بشر بن الوليد ، فقال الشاهد : إن الله يتكلم كما يليق بجلاله ، والقرآن غير مخلوق ، واحتج على عقيدته بقوله ﷻ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء:١٦٤] ، فرد بشر شهادته واتهمه في دينه ، فخرج الرجل يصيح ويقول مخاطبا المأمون :

ألا أيها الملك الموحد ربه : قاضيك بشر بن الوليد حمار

ينفي شهادة من يدين بما به : نطق الكتاب وجاءت الأخبار

ويعد عدلا من يقول بأنه : شيخ تحيط بجسمه الأقطار[٣].

• مناظرة العلماء في خلق القرآن .

قال المأمون لنائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم : (واكتب إلى أمير المؤمنين بما

---

(١) السابق ٥/ ١٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٩ .

(٣) السابق ١٠/ ٢٦٢ ، وتاريخ الطبري ١٦٤/٥ .

يأتيك عن قضاة أهل عملك في مساءلتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله ، وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين)[1] .

هذا كتاب المأمون بن هارون الذي حمل من ألوان الفتنة وأنواع الضلال وهو يدل بحق على مقدار البلاء الذي حل بالأمة الإسلامية بسبب الآراء الاعتزالية ، فقد أمر الوالي إسحاق بن إبراهيم أن يجمع من بحضرته من القضاة ، وأن يقرأ هذا الكتاب عليهم ويبدأ في امتحانهم والكشف عن اعتقادهم ، وأن يقرأ هذا الخطاب عليهم مرارا حتى يدركوا مراد الخلفية منهم .

وقد كان رد الفعل في بغداد أن الوالي إسحاق بن إبراهيم أحضر الفقهاء والمحدثين والقضاة ، وكان من أبرزهم أحمد بن حنبل ، وأبو حيان الزيادي ، وبشر بن الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وابن الهرش ، وابن علية الأكبر ، ويحي ابن عبد الحميد العمري ، وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضيا على الرقة ، وأبو نصر التمار ، وأبو معمر القطيعي ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح ، وابن الفرخان ، والنضر بن شميلة ، وأبو على بن عاصم ، وأبو العوام البارد ، وأبو شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، وجماعة من أهل العلم ، قرأ عليهم خطاب المأمون مرتين حتى فهموه[2] .

ثم سأل بشر بن الوليد عن القرآن ؟ فقال بشر : قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة القرآن كلام الله . قال إسحاق بن إبراهيم : أمخلوق هو ؟ قال بشر : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] . قال إسحاق : أليس القرآن شيء ؟ . قال بشر : هو شيء . قال إسحاق : فمخلوق هو ؟ قال بشر : ليس بخالق . قال إسحاق : ليس أسألك عن هذا . قال بشر : لا أحسن غير ما قلت وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت[3] .

---

(١) تاريخ الأمم الطبري ٥/ ١٨٨ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٢٧٣ .

(٣) السابق ١٠/ ٢٧٣ .

أراد بشر بن الوليد الكندي في جوابه التورية والمواربة ، فهو يبطن اعتقاد السلف ولكنه أراد الحيدة ليتخلص من امتحان الوالي وبطش الخليفة محتجا بقوله : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] فيسكتوا عنه ، لأن العموم في الآية مخصوص بالمخلوقات فقط ، أما ذات الله وصفاته ومنها صفة الكلام وما تكلم الله به في القرآن فلا يندرج تحت عموم الآية .

والدليل على أنه سبحانه لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة قوله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شيءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥] ، وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها كمنازلهم ومساكنهم والجبال التي كانت بحضرتهم ، فأتت عليها تلك الريح ولم تدمرها ، وبالرغم من ذلك قال : تدمر كل شيء ، ومثل ذلك أيضا قول الهدهد عن بلقيس ملكة اليمن : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل:٢٣] ، وعرش سليمان ﷺ كان موجودا وقتها ولم تستحوذ عليه بلقيس ، فكذلك إذا قال تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] ، لا يعني نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة .

وقال الله لموسى ﷺ : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه:٤١] ، وقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه] [آل عمران:٢٨] وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِه ﴾ [الأنعام:٥٤] ، وقال ﷺ : ﴿ تَعْلَمُ مَا في نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا في نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] ، ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، فالعقلاء يعلمون أن الله لا يعني نفسه مع الأنفس التي تذوق الموت ، فكذلك إذا قال : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] ، لا يعني نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة (١) .

فالقول الذي عليه السلف الصالح أن الله خالق كل شيء من الممكنات أو الحوادث المخلوقات ، أما القرآن الذي تكلم به الله وبدا من كلامه فليس بمخلوق بل هو وصف أزلي قائم بالذات ، وهو سبحانه شيء لا كسائر الأشياء ولا يطبق عليه ما يطبق على عليها قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، وقال سبحانه : ﴿ فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤] .

فلما قال بشر لا أحسن غير ما قلت وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٢٧ .

وليس عندي غيرُ ما قلت ، أخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه مكتوب فيها إقرار سيوقع عليه كل من لا يقر بخلق القرآن وكان فيها : أشهد أن الله واحد أحد فرد صمد ، لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فقرأها إسحاق بن إبراهيم على بشر بن الوليد الكندي وقال له : أتشهد على ما في هذه الرقعة ؟ قال بشر : نعم ، فقال إسحاق لكاتبه : أكتب ما قال [١] .

لكن العبارة التي أشهده عليها عبارة مرنة ظاهرها حق وفي داخلها إقرار ضمني بمذهب المعتزلة ، لأن معنى أن الله لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا في وجه من الوجوه يلزم منها عندهم نفي الصفات عن الله مطلقا كالسمع والبصر والكلام وغير ذلك ، لأن المخلوق له صفات أيضا كالسمع والبصر والكلام ، فالاجتماع في الألفاظ العامة المشتركة يوجب عند المعتزلة التشبيه والتمثيل ، وهذا من فساد الفطرة وخراب العقل ، لأن التشبيه لا يكون إلا إذا قال سمع الله مثل سمعي وبصره كبصري وكلامه ككلامي فهذا تشبيه .

وقد علمنا بالضرورة أن الله موجود والمخلوق موجود ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما في لفظ عام لا يقتضي تماثلهما في هذه الصفة عند الإضافة والتخصيص والتقييد ، فلا يقول عاقل إذا قيل إن العرش شيء موجود ، وإن البعوض شيء موجود فإن العرش والبعوض متماثلان لاتفاقهما في لفظ الشيء والوجود ، ولهذا سمى الله نفسه بأسماء هي مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشاركه فيها غيره ، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء هي مختصة بهم مضافةٌ إليهم ، ولم يلزم من اتفاق الاسمين عند التجرد عن الإضافة تماثلهما واتفاقهما ، ومن ثم فإن الأسماء من جهة اللغة عامة مشتركة تتخصص دلالتها عند العقلاء بالإضافة والتقييد .

ولمزيد من الإيضاح لو قال قائل : هذا فيل كبير ، وقال آخر : هذا طائر كبير فالمشترك بين القولين بعد اسم الإشارة لفظ كبير ، وهو عند سائر العقلاء من حيث

---

(١) البداية والنهاية ٢٧٣/١٠ .

الدلالة له ثلاثة معان ظاهرة ، الأول عند إضافته إلى الفيل ، فأي عاقل يتصور من دلالته معنى معينا يستوعبه الذهن حيث يتصور فيلا كبيرا بين بني جنسه من الفيلة .

والثاني عند إضافته إلى الطائر فإن العاقل يتصور من دلالته معنى آخر غير المعنى السابق فهو طائر كبير بين الطيور ، ولا يزعم عاقل أنه عندما يسمع قول القائل طائر كبير فإنه يتصور جبلا أو جملا أو فيلا أو بغلا أو غير ذلك .

والثالث إذا قطع لفظ كبير عن الإضافة وكان مفردا مجردا ، فإن له معنى آخر يتصور الذهن فيه شيئا عاما يمكن اشتراك الكل فيه ، وإن كانت الألفاظ لا تطلق مجردة بين العقلاء ؛ فالله ﷻ وله المثل الأعلى إذا قال في كتابه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان:٢] ، وقال سبحانه عن نفسه : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [النساء:٥٨] ، فإن السميع والبصير كاسمين أو لفظين من مفردات اللغة لهما من حيث الدلالة ثلاثة أنواع يستوعبها العقلاء :

الأول : إذا أضيفا إلى الإنسان ؛ فإن العاقل يعلم معنى كونه سميعا بصيرا ويعلم الكيفية الحقيقية التي دل عليها هذان الاسمان في حق المخلوق ، فالإنسان يسمع بأذن ويبصر بحدقة ، وهذا ظاهر اللفظ عند تخصيصه وتقييده بالإنسان .

الثاني : إذا أضيفا إلى الله ﷻ ؛ فإن العاقل يعلم معنى كونه سبحانه سميعا بصيرا فالله يسمع ويرى على الحقيقة ، لكن العاقل لا يعلم الكيفية الحقيقية للوصفين الذين دل عليهما هذان الاسمان في حق الله تعالى ؛ فالكيف مجهول لنا لأننا ما رأينا الله وما رأينا له نظيرا ، وهو سبحانه وحده الذي يعلم كيف هو ؟ وقد أمرنا أن نؤمن بما أخبرنا به عن نفسه ، وأن نصدقه تصديقا جازما ، وهذا مراد السلف بأن نصوص الصفات على ظاهرها في حق الله ﷻ .

الثالث : إذا قطعا عن الإضافة وانفصلا عن التقييد وكانا مجردين فإن لهما معنى ثالثا عاما ومشتركا غير المعنى الأول والثاني ، وهذا لا يكون في الواقع بل يتصوره الذهن فقط ، ولا يلزم أبدا من استعمال الألفاظ المجردة في حق الخالق أو المخلوق وجود التطابق بين سمع هذا وذاك أو بصر هذا وذاك أو وجود المماثلة والمشابهة بينهما .

ومن هنا ظهر الخطأ الذي وقع فيه المعتزلي بادعائه التوحيد ، فلما شبهه الله بخلقه لم يجد الصورة التي كونها في ذهنه مستساغة أو مقبولة فأراد أن ينفيها بحجة أن الله

ليس كمثله شيء ، ومن ثم فإن الألفاظ كمفردات لغوية يستخدمها المتكلم في التعبير عن مراده عند تجردها وذكر مفرداتها منقطعة عن الإضافة تكون عامة مشتركة بحيث يمكن استخدامها في حق الخالق والمخلوق معا .

أما إذا أضيفت إلى الخالق سبحانه وقيدت ألفاظها بالدلالة عليه ؛ فإنها تدل على معنى يخص الخالق دون غيره ، وكذلك إذا أضيفت إلى المخلوق وقيدت ألفاظها بالدلالة عليه ؛ فإنها تدل على معنى آخر يخص المخلوق دون غيره ، فهناك قدر مشترك عند التجرد ، وقدر فارق عند التخصيص والتقيد ، ولا يمكن إهمال القدر الفارق لأن ذلك تمثيل للمخلوق بالخالق ، ولا يمكن نفي القدر العام المشترك بين الجميع لأنه تعطيل للألفاظ اللغوية ، وإبطال للتفاهم والتواصل في لغة التخاطب بين الإنسانية [1] .

وقد تضمن القرآن نصوصا كثيرة تدل على أن الله ﷻ سمى نفسه بأسماء ، وسمى بعض عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه عند التجرد وعموم اللفظ ، فسمى نفسه حيا كما ورد في قوله ﷻ : ﴿ اللهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وسمى بعض عباده حيا كما في قوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الأنعام:٩٥] ، وليس الحي كالحي ، وسمى نفسه عليما كما في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:٨٣] ، وسمى بعض عباده عليما كما في قوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات:٢٨] وليس العليم كالعليم ، وسمى نفسه حليما كما في قوله ﷻ : ﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] ، وسمى بعض عباده حليما كما في قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١] ، وكذلك سمى نفسه رءوفا رحيما وسمى بعض عباده رءوفا رحيما ، وليس الرءوف كالرءوف ولا الرحيم كالرحيم ، وكذلك سمى نفسه ملكا عزيزا جبارا متكبرا ، وسمى بعض عباده ملكا وبعضهم عزيزا وبعضهم جبارا متكبرا ، وليس هو في ذلك مماثلا لخلقه [2] .

قال أبو عمر الطلمنكي : (وقال قوم من المعتزلة والجهمية لا يجوز أن يسمى الله ﷻ بالأسماء على الحقيقة ويسمى بها المخلوق ، فنفوا عن الله الحقائق من أسمائه وأثبتوها لخلقه ، فإذا سئلوا ما حملهم على هذا الزيغ ، قالوا : الاجتماع في التسمية يوجب

---

(١) انظر في هذا المعنى بيان تلبيس الجهمية ٣٩١/١ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤٢٥/٤ بتصرف .

التشبيه ، قلنا : هذا خروج عن اللغة التي خوطبنا بها ، لأن المعقول في اللغة أن الاشتباه لا يحصل بالتسمية وإنما بتشبيه الأشياء بأنفاسها وذواتها أو بأوصاف وهيئات فيها كالبياض بالبياض والسواد بالسواد والطويل بالطويل والقصير بالقصير ، ولو كانت الأسماء توجب اشتباهاً وتماثلاً لاشتبهت الأشياء كلها لشمول اسم الشيء لها وعموم تسمية الأشياء بها) [١] .

وقد أخبر الله عما في الجنة من أنواع النعيم التي أعدها لأهلها من المطاعم والملابس والمناكح والمساكن ، فأخبر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وماء وحريرا وذهبا وفضة وفاكهة وحورا وقصورا ، قال ابن عباس ﷺ : (ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء) [٢] ، وإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها هي موافقة في الأسماء التي في الدنيا وليست مماثلة لها ، بل بينها من التباين مما لا يعلمه إلا الله ، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم مباينة للمخلوق من مباينة مخلوق الآخرة لمخلوق الدنيا [٣] .

ومن ثم فقد أخطأ بشر بن الوليد الكندي حين أقر بهذه العبارة على إطلاقها وسوف نرى موقف الإمام أحمد منها .

ثم توجه الوالي إسحاق بن إبراهيم إلى على بن مقاتل فسأله عن قوله وعقيدته في القرآن ، فقال على : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، ثم قال : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب الرسول ﷺ في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها ، فأشهده على الرقعة التي فيها : أشهد أن الله واحد أحد فرد صمد ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ، وقال له : أتشهد على ما في هذه الرقعة قال : نعم ، فقال إسحاق لكاتبه أكتب ما قال [٤] .

ثم توجه إلى أبي حسان الزيادي وسأله عن القرآن فقال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين قلده الله أمرنا يقيم حجنا

---

(١) مختصر العلو للعلي الغفار للحافظ الذهبي ص ٢٦٤.

(٢) الترغيب والترهيب ٣١٦/٤ ، وهو صحيح موقوف كما ذكر الألباني ، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٦٩) وصحيح الجامع حديث (٥٤١٠) ، والسلسلة الصحيحة ٢١٩/٥ (٢١٨٨) .

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/٣ .

(٤) تاريخ الأمم الطبري ١٩٠/٥ بتصرف .

وصلاتنا ، ونؤدي إليه زكاة أموالنا ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، قال إسحاق بن إبراهيم : القرآن مخلوق ؟ فأعاد أبو إسحاق ما قاله ، قال إسحاق : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها ، إن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول بخلق القرآن قلت به ، قال إسحاق : ما أمرني أن أبلغك شيئا إنما أمرني أن أمتحنك ، فأشهده على الرقعة فشهد وكتب جوابه [(١)] .

• موقف الإمام أحمد في المناظرة حول خلق القرآن .

ثم جاء دور الإمام أحمد في محنته ، وهو قوي بسيف الحق في حجته ، صريح في دليله ومقولته ، لا يلمح ولا يلوح ، ظاهره ينبئ عن باطنه ، لا يستخدم الحيدة أو التأويل ، فهو بحول الله على الحق قائم ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، فقال له بن إبراهيم : ما تقول في القرآن ؟ قال أحمد : هو كلام الله ، قال إسحاق : أمخلوق هو؟ قال أحمد : هو كلام الله ولا أزيد على ذلك ، قال إسحاق بن إبراهيم أتوافق على الرقعة التي فيها : أشهد أن الله واحد أحد فرد صمد ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ؟ قال الإمام أحمد أقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، ورفض ما في الرقعة لاشتمالها على حق وباطل [(٢)] .

ونلاحظ هنا أن التزام الإمام أحمد بتلك الآية جعله في حصن منيع من لوازم قولهم الباطل في نفي صفة الكلام عن الله ، فقد نفى المماثلة والمشابهة بين الله وخلقه ووحد الله وأفرده عن سائر الخلق بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء ﴾ ، ثم أثبت الصفات لله كما أثبتها الله لنفسه دون تعطيل لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾، فمذهب السلف وسط بين التمثيل والتعطيل .

قال ابن تيمية : (ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقدر فارق ، فمن نفى القدر الفارق فقد مثل ، ومن نفى القدر المشترك فقد عطل) [(٣)] .

---

(١) السابق٥/١٩٠.

(٢) السابق٥/١٩٠.

(٣) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ٦٩/٣ .

وقد التزم الإمام أحمد بمنهج أهل السنة فأثبت القدر الفارق ولم يمثل ، وأثبت القدر المشترك ولم يعطل ، وأمسك عن عبارة : ولا يشبهه أحد من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه .

قال أحد الحاضرين من المعتزلة ينبئ عن جهله بصفات الله ﷻ يقال له ابن البكاء الصغير ، قال لإسحاق بن إبراهيم : يا أمير إنه يقول سميع بأذن بصير بعين ، قال إسحاق لأحمد : ماذا أردت بقولك وهو السميع البصير ؟ قال أحمد مفحما لهما : أردت منها ما أراده الله ورسوله [(١)] .

ثم اختبرهم رجلا رجلا وكتب ما كان منهم ، وبعث جوابهم إلى الخليفة المأمون بن هارون ، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم إسحاق بن إبراهيم والي الخليفة على بغداد وقد ورد كتاب المأمون الثاني جاء فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابَ كتابه إليك ، فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، وما كان من قولهم في القرآن لما أمرك أمير المؤمنين بامتحانهم وتكشيف أحوالهم ، فأما ما قاله المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادعاء تركه الكلام في ذلك واستعهاده أمير المؤمنين فقد كذب بشر في ذلك وكفر وقال الزور والمنكر [(٢)] .

ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق ، فادعه إليك وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وأنصصه عن قوله في القرآن واستتبه منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصريح والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فأشهر أمره وأمسك عنه ، وإن أصر على شركه ورفض أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله ، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا فإنه كان يقول بقوله ، فإن قال إن القرآن مخلوق

---

(١) السابق ١٩١/٥.

(٢) يعني قول بشر لإسحاق بن إبراهيم : لا أحسن غير ما قلت وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت .

فأشهر أمره وأكشفه وإلا فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها واستدل على جهله وآفته) [١] .

وقد سمى الخليفة المأمون في خطابه رجلا رجلا ثم قال : (ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه لينصحهم أمير المؤمنين فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية ، ولم ينتظر اجتماع الكتب الخرائطية - يعني الرسائل العادية - معجلا به تقربا إلى الله ﷻ بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل من جميل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أتاك من أمر المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعريف أمير المؤمنين ما يعلم شاء الله) [٢] .

عند ذلك أدرك المحدثون أن الخليفة قد أجمع أمره ، وأنه فوض نائبه في بغداد إسحاق بن إبراهيم بقطع الرقاب ، وأن الأمر شديد فأجابوا مكرهين متأولين قول الله تعالى : ﴿ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ ﴾ [النحل:١٠٦] .

أجاب القوم كلهم إلى أن القرآن مخلوق حين دعاهم إسحاق بن إبراهيم وأعاد امتحانهم ، ولم يمتنع إلا أربعة نفر منهم الإمام أحمد بن حنبل والحَسَنُ بْنُ حَمَّادٍ الحَضْرَمِيُّ المكني بسجادة ، وعبيد الله بن عمر القواريري ، ومحمد بن نوح .

فأمر إسحاق بن إبراهيم باعتقالهم وشدهم في الحديد ووضعهم في السجن ، ثم في اليوم الثاني دعاهم جميعا ، فأتي بهم يساقون في الحديد ، فأعاد عليهم المحنة فأجابه سجادة الحَسَنُ بْنُ حَمَّادٍ إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم ، فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا فأعاد عليهم القول فأجاب

---

(١) السابق ١٩١/٥ .

(٢) السابق ١٩٣/٥ .

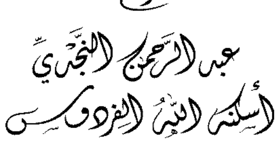
عبيد الله بن عمر القواريري إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده وخلة سبيله [١] .

وأصر الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما في خلق القرآن وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ولم يستجيبا لوالي الخليفة ، فزاد إسحاق بن إبراهيم من قيودهما في الحديد ووضعهما في سجن بغداد استعدادا لترحيلهما إلى الخليفة المأمون ، وكان إسحاق بن إبراهيم قد كتب للمأمون كلاما خاصا عن الإمام أحمد يلفت نظر الخليفة إلى أن له منزلةً في قلوب الأمة من حيث العلم والصدق والزهد في الدنيا ، وأنه يرى الطاعة لأمير المؤمنين [٢] .

---

(١) السابق ١٩٣/٥ بتصرف .

(٢) السابق ١٩٤/٥ بتصرف .



الفصل الثالث

صمود إمام أهل السنة في وجه الظلم والبدعة

أُخرج أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح من سجن بغداد متوجهين إلى الخليفة المأمون بن هارون ، وكان بطرسوس أحد المدن في شمال الشام تقع على نهر طرسوس ، حيث كان المأمون وقتها في طريقه لغزو الروم [١] .

فأكد إسحاق بن إبراهيم قيودهما وجمعهما في سلسلة واحدة وعلى بعير واحد متعادلين ، الإمام أحمد في ناحية ومحمد بن نوح في الناحية الأخرى بصورة مذرية مشينة تدل على مدى الغضب الذي هيمن على المأمون ونائبه ، ومدى الثبات الذي عليه إمام أهل السنة وصاحبه ، وفي الطريق قيل لأحمد : ألا ترى الباطل كيف ظهر على الحق ؟ قال : كلا إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل قلوب الرجال من الهدى إلى الضلال ، وقلوبنا بعد لازمة للحق [٢] .

وهذا الكلام يدل على وصف هام يتميز به دعاة أهل السنة ، وهو يقينهم بالله ﷻ الذي يقلب الأمور في خلقه وله علو القهر في ملكه ، وله القوة المطلقة التي يمكن بها لأوليائه وإن طالت صولة الباطل ، فهو سبحانه الذي ابتلى الظالمين بتلك القوة وهو الذي سيحاسبهم لا محالة ، ولكن تمسك القلب بالحق هو الذي يبني الأمة ولو بعد حين ، ومن ثم فإن الدعوة لإصلاح القلوب بحسن الاعتقاد في الله وإخلاص العبودية له هو الشغل الشاغل لأتباع الأنبياء والمرسلين ، فإذا انصلحت القلوب ستنصلح الأركان في أبدانها ثم تنصلح الدنيا بأسرها .

وفي الطريق جاءه رجل أعرابي من العابدين الزاهدين يقال له جابر بن عامر فقال : من يدل على أحمد بن حنبل ؟ فأشاروا إليه وهو مقيد بالحديد ، فسلم على الإمام وقال له : يا هذا إنك وافد الناس اليوم فلا تكن شؤما عليهم ، وإنك رأس الناس فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا فتحمل أوزار الناس إلى يوم القيامة

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٢ بتصرف .

(٢) السابق ١٠/ ٣٣٢ .

وإن كنت تحب الله فاصبر ، فإن ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت وإن عشت عشت حميدا ، قال أحمد رحمه الله : كان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من رد الذي يدعونني إليه (١) .

لقيهما في الطريق أيضا أبو جعفر الأنباري فقال للإمام أحمد : أنت اليوم رأس الناس يقتدون بك ، فو الله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله ، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ، ولا بد من الموت ، فاتق الله ولا تجبهم بشيء ، فجعل الإمام أحمد يقول له : ما شاء الله كائن ، ما شاء الله ما سيكون (٢) ، قال الربيع : (بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل فأتيته وقد انتهى من صلاة الفجر ، فدفعت إليه الكتاب فقال : أقرأته ؟ قلت : لا قال أحمد : يذكر الشافعي أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له : اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم ، يرفع الله لك علما إلى يوم القيامة) (٣) .

وانطلقا السفيران عن مذهب أهل السنة والجماعة القائمان بكلمة الحق ، وهما يعلمان أن أفضل الجهاد كمة حق عند سلطان جائر ، كما ثبت عند أبي داود من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ) (٤) .

انطلقا السفيران يجران أقيادهما في الطريق إلى طرسوس حيث ينتظرهما المأمون بن هارون حتى اقتربا من معسكر الخليفة في الثامن عشر من رجب سنة ٢١٨هـ ، ولم يكن في آذان الناس وقتها إلا الأسماء الثلاثة : المأمون أمير المؤمنين خليفة المسلمين وهو شاهر سيفه يتهدد ويتوعد ، إن لم يجبه الأسيران بخلق القرآن ضرب منهم الأعناق ، وأحمد بن حنبل سفير عن عامة الناس ، ومن أجاب المأمون تقية أو خوفا على نفسه وأهله ، ومحمد بن نوح وهو دون الإمام في العلم لكنه كان أقوم الناس بأمر

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣١٣/٥ ، وانظر السابق ١٠/ ٣٣٢ .

(٢) تهذيب الكمال ١/ ٦٠٤ بتصرف .

(٣) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣١ بتصرف .

(٤) أبو داود في كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ٢/ ٥٢٧ (٤٣٤٤) ، وانظر صحيح الجامع (١١٠٠) .

الله في وجه الخليفة ، وهما يحشران إلى المأمون بن هارون ، والرأي العام في المدن والقرى وفي بغداد وما حولها ينتظر بأسف وحزن أخبار المذبحة التي ستحدث عما قريب .

ولكن سيف الحق أقوى من سيف المأمون والله ﷻ غالب على أمره وهو القائل في كتابه : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢] ، فلما اقتربا من معسكر الخليفة ونزلوا على مسافة منه ، قال له محمد نوح : يا أحمد إني موصيك بوصية فاحفظها عني ، راقب الله في السراء والضراء ، واشكره على الشدة والرخاء وإن دعانا هذا الرجل أن نقول القرآن مخلوق فلا تقل ، وإن أنا قلت فلا تركن إلي وتأول قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ [هود:١١٣] (١) .

ثم جاء خادم المأمون وسيافه يبكي ويمسح دموعه ويقول : يعز علي يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفا لم يسله من قبل ، وأقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف ، قلبه مع الإمام أحمد وبدنه موظف في خدمة الخليفة ، فرفع الإمام أحمد بصره إلى السماء وجثى على ركبتيه ودعا ربه قائلا : سيدي ومولاي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته ، فما أن انتهى من دعائه حتى طار الخبر في كل مكان في الثلث الأخير من الليل ، مات المأمون ، مات الخليفة ، ودخل رجل يبشرهم قائلا : البشرى قد هلك الرجل (٢) .

استجاب الله للإمام ولم يلق المأمون ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم:٥٢] ، وقال : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٥] ، وقال : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ [هود:١١٣] .

---

(١) حلية الأولياء ٩/ ١٩٥ بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٢ بتصرف .

• موت المأمون وتولي المعتصم واستمرار المحنة .

مات المأمون غير مأسوف عليه فقد جمع أهل الضلال لديه ، وقربهم وآزرهم ومكنهم من رقاب العباد ، فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل ، مع أنه كان مسلما يحب العلم والفقه لكنه لم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخلت عليه بسبب جهله الدواخل وراج عنده بقصر نظره الباطل ، ودعا العلماء بالقوة إليه ، وحمل عامة الناس قهرا عليه ، وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته .

وقد تأكد للعامة قبل الخاصة صدق ما عليه إمام أهل السنة وقويت مكانته في القلوب وتعلقت به النفوس ، ولكن المعتصم الذي تولى الخلافة بعد هلاك أخيه المأمون لم يتعظ بما حدث لأخيه ، إذ أخذ ينفذ وصيته التي وصاه بها قبل موته بلحظات ، خذ بسيرة أخيك في خلق القرآن ، واجعل قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك ، فأمر المعتصم بردهما إلى بغداد وتجديد إعتقالهما حتى يفرغ لهما وحتى تهدأ الأمور في الدولة ، فلو قتلهما أو عذبهما قد لا يأمن على دولته من ثورة الرأي العام ، أو حدوث انقلاب في البلاد ، فكانت الدواعي السياسية تحتم عليه الانتظار وتأجيل الأمر حتى يتمكن من إحكام قبضته وإخضاع العامة والأمة له .

لم يتحمل محمد بن نوح في طريق العودة إلى بغداد آثار القيود وهو في عنفوان شبابه فمات رحمه الله ، وأكد على الإمام أحمد في وصيته له قبل موته قائلا : يا أبا عبد الله ، اللهَ اللهَ ، إنك لست مثلي أنت رجل يقتدي به ، وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله ، فصلى عليه الإمام أحمد ، ودفنه في الطريق ، وكان يقول عنه : ما رأيت أحدا على حداثة سنه وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح[(١)] .

وبقي الإمام أحمد وحيدا في تلك المحنة سجينا في بغداد ، والقيود في يديه ورجليه طيلة ثمانية وعشرين شهرا لم تحل عنه ، وهو صامد صادق يؤم السجناء في سجن بغداد ، ويخفف عنهم ويعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

---

(١) الوافي بالوفيات ٦٣٨/١ بتصرف .

قال له عمه إسحاق بن حنبل : يا بني لم لا تجيبهم إلى القول بخلق القرآن تقية ؟ فقال أحمد : وكيف تصنعون بحديث خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ ﷺ ، قال : (شَكَوْنَا إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ ، قُلنَا لهُ : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لنَا أَلَا تَدْعُو اللهَ لنَا ؟ قَال : كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دِينِهِ وَاللهِ ليُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ على غَنَمِهِ وَلكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[1].

ثم قال : إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟ إني لا أبالي بالحبس فما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلا بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط وأخاف أن لا أصبر فأوافقهم ، قال أحد السجناء : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هما إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي ؟[2].

وبعد أن تلاحقت عليه ثلاث سنوات وهو في أغلاله حولوه من السجن العام إلى دار إسحاق بن إبراهيم والي الخليفة على بغدد ليتداولوه على انفراد قبل أن يدخل على الخليفة في داره ، فناظروه وغلبهم في الحجة ، فقالوا له : يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك بالسيف ، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس ، فلم يعبأ بهم وقال : يأتوني بآية من كتاب الله وأنا أجيبهم ، فزادوا قيوده الحديدية حتى أصبحت في رجله أربعة ، فلم يستطع أن يمشي بها ، فربطها في تكة السروال ، وحملها بيده من ثقلها ، ثم جاءوا بدابة وحملوه عليها فكاد أن يسقط على وجهه من ثقل القيود ، وليس معه أحد يمسكه على الدابة ، فسلم الله حتى جاءوا دار المعتصم[3].

وخرج الخليفة على قومه في زينته ، والحاضرون يرتجفون من بطشه وقوته ، ورهط السوء من المعتزلة يشعلون قلب المعتصم وفتنته ، وعلى رأسهم قاضي القضاة أحمد بن

---

(١) البخاري في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ١٣٢٢/٣ (٣٤١٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٤٠/١١ بتصرف .

(٣) السابق ٢٤٤/١١ بتصرف .

أبي دؤاد وعبد الرحمن بن إسحاق وغيرهم مجموعون لليوم المشهود ، يبثون نار الفتنة في قلب الخليفة ، ويوحون إليه أنه داعي العدل والتوحيد ، وأنهم مجاهدون في سبيل الحق ، وهم في حقيقة أمرهم متقولون على الله ورسوله ، مدعون أنهم أهل العدل والتوحيد [١] .

وكان صاحب السجن قد ضرب عنق رجلين في ذلك اليوم لترتجف القلوب والجلادون وقوف والسياط كالسيوف ، ورهبة لا يسلم منها إلا من جعل خوفه من الله أقوى ويقينه بنصر الله وتأييده لأوليائه أعلى .

• مناظرة أهل البدعة بين يدي المعتصم .

ولما أدخلوا الإمام أحمد بن حنبل على أمير المؤمنين المعتصم ، قال المعتصم : قربوه فلم يزل يقربوه حتى أجلسه المعتصم بجواره : قال أحمد : فجلست وقد أثقلتني القيود فمكثت قليلا ثم قلت : تأذن لي في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : تكلم . فقلت : إلى ما دعا ابن عمك رسولُ الله ﷺ ؟ قال المعتصم : إلى شهادة أن لا إله إلا الله . فقلت له : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله . ثم قلت : إن جدك عبد الله بن عباس قال : لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألوه عن الإيمان بالله وحده ؟ فقال لهم : أتدرون ما الإيمان؟ فقالوا : الله وسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تعطوا الخمس من المغنم [٢] .

قال المعتصم : لولا أني وجدتك في يدي من كان قبلي ما عرضت لك . ثم قال : يا عبد الرحمن بن إسحاق ألم آمرك برفع المحنة ؟ ناظروه وكلموه ، ناظره يا عبد الرحمن فقال : ما تقول في القرآن ؟ قال الإمام أحمد : فلم أجبه فقال المعتصم : أجبه. فقلت : ما تقول في علم الله؟ فسكت عبد الرحمن ، قال أحمد فقلت : القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت عبد الرحمن ، فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا ، فلم يلتفت المعتصم إلى ذلك . فقال عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن . فقلت : كان الله ولا علم ، فسكت عبد الرحمن . قال أحمد : يا أمير

---

(١) السابق ٢٤٥/١١ بتصرف .

(٢) البخاري في العلم ، باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ٤٥/١(٨٧) .

المؤمنين أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ حتى أقول به [(١)].

اعتمد الإمام أحمد بن حنبل في حجته لإثبات صفة الكلام على إثبات الأزلية في صفات الأفعال ومنها صفة الكلام كالأزلية في صفات الذات التي هي من لوازم الكمال فصفات الله على ثلاثة أنواع :

١- صفات ذاتية : وهي كل صفة وصف الله نفسه بها في كتابه أو وصفه بها رسوله ﷺ لا تتعلق بالمشيئة الإلهية ، وهذه الصفات ملازمة له ، لم يزل ولا يزال متصفا بها كالعلم والقدرة والعزة والحكمة والعلو والعظمة والوجه واليدين والسمع والبصر .

٢- صفات فعلية : وهي أفعال لله تتعلق بمشيئته وقدرته إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل وفي يوم عرفة ، والمجيء لفصل القضاء يوم القيامة ، والغضب والرضا والفرح والضحك وغير ذلك من أفعال الرب تبارك وتعالى .

٣- صفات ذاتية فعلية وذلك باعتبارين : الأول باعتبار أصل الصفة وملازمتها للذات فلم يزل الله ولا يزال متصفا بها ، كصفة الكلام فإنها صفة ذاتية باعتبار أصله والقدرة عليه لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلما ، فالكلام من لوازم الكمال وضده من أوصاف النقص ، والله سبحانه له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته ، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام وشأنه مع قومه : ﴿ قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣] ، فدلت الآية على أن صفة الكلام من لوازم الكمال للمعبود .

الاعتبار الثاني تعلق الصفة بمشيئة الله ﷻ وقدرته ، إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، فالكلام صفة فعلية تتعلق بمشيئته باعتبار أنه يتكلم في وقت دون وقت فالله ﷻ متصف بالكلام في الأزل ، وشاء أن يتكلم بالقرآن ، وينزله وحيا عربيا على محمد ﷺ فتم ما شاءه ، أما قبل خلق السماوات والأرض وخلق اللوح والقلم ووجود محمد ﷺ فكان القرآن في العلم الأزلي ، فكل صفة كمال تعلقت بمشيئة الله تعالى فإنها تابعة لعلمه وحكمته كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا

---

(١) البداية والنهاية ٣٣٢/١٠ .

حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:٣٠] [١] .

ولهذا رد الإمام أحمد صفة الكلام باعتبارها صفة من صفات الأفعال إلى صفة العلم باعتبارها صفة من صفات الذات ، وهذا يدل على سعة علمه وفهمه رحمه الله .

فقال بعض الحاضرين للإمام أحمد : أليس قد قال الله : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُل شيء ﴾ [الزمر:٦٢] ، القرآن أليس هو شيء ؟ فقال الإمام أحمد قال الله : ﴿ تُدَمِّرُ كُل شيء بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥] ، فهل دمرت إلا ما أراد الله ﷻ؟ قد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها كمنازلهم ومساكنهم والجبال التي بحضرتهم ، فأتت عليها تلك الريح ولم تدمرها وبالرغم من ذلك قال : ﴿ تُدَمِّرُ كُل شيء ﴾ ، فكذلك إذا قال : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُل شيء ﴾ لا يعني نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة ، وقد ذكر الله كلامه في غير موضع من القرآن فسماه كلاما ولم يسمه خلقا قال تعالى : ﴿ وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلامَ الله ﴾ [التوبة:٦] ، ولم يقل حتى يسمع خلق الله فهذا منصوص بلسان عربي مبين لا يحتاج إلى تفسير [٢] .

فقال بعض الحاضرين للإمام أحمد : أليس قد قال الله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢] ، أفيكون محدثا إلا مخلوقا ؟ قال أحمد رحمه الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَالقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص:١] ، والذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولا لام ، فالمراد هو ذكر الرسول ، وذكر الرسول يجري عليه الحدث ، أما ذكر الله إذا ورد لا يجري عليه الحدث ، قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ، أما علم النبي فهو محدث مخلوق ، فالشيئان إذا اجتمعا في اسم يجمعهما فكان أحدهما أعلى من الآخر ثم جرى عليهما اسم مدح كان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه ، وإن جرى عليهما اسم ذم فأدناهما أولى به ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة :١٤٣] ، فالمؤمن أولى برحمته سبحانه من الكافر ، وإن كانا يجتمعان في اسم الناس ، وكذلك لما قال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢] جمع بين ذكرين ذكر الله وذكر نبيه ، فأما ذكر الله إذا انفرد لم يجر عليه اسم الحدث [٣] .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣٣/١٢ بتصرف .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٤٧/٢ ، البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٢ بتصرف .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٤٥/١١ بتصرف .

ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ، وقوله : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء:٥٠] ، وإذا انفرد ذكر النبي ﷺ، فإنه جرى عليه اسم الحدث ألم تسمع إلى قوله : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات:٩٦] ، فذكر النبي خلقه الله وأحدثه وقال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥] ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى:٩] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية:٢١] ، فالله جمع بين ذكرين في قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢] ، فأوقع الحدث على المبلغ المذكر [١] .

وخلاصة ما ذكره الإمام أحمد أن الرسول ﷺ سبب لإظهار كلام الله فهو مخلوق محدث ، أما المتكلم الأول قبل خلق القائلين فهو الله ، وكلامه صفته ليس بمخلوق .

وقد استمرت المناظرة عدة ساعات والإمام أحمد واقف يجادلهم ويناظرهم ويغلبهم في الحجة ، والخليفة المعتصم يعلوه الهم والغم ، ويرى ضعف أتباعه من المعتزلة في مواجهة الإمام أحمد بن حنبل ، كلما استدلوا بدليل بين للخليفة بطلانه ، فربما يستدلون بآية في غير موضعها ، وربما يحرفون المعاني عن دلالتها .

ذكر بعضهم في المناظرة حديث عمران بن حصين ﷺ، فقال محرفا لحديث رسول الله ﷺ، إن رسول الله يقول : إن الله خلق الذكر ، والذكر هو القرآن . قال أحمد : فقلت له : هذا خطأ ، حدثنا غير واحد : إن الله كتب الذكر .

وحديث عمران رواه البخاري في صحيحه عن صفوانَ بن مُحرزٍ عن عَمرانَ بن حُصينٍ ﷺ قال : (إنِّي عندَ النبيِّ ﷺ إذ جاءهُ قومٌ من بني تميم فقال : اقبَلوا البُشرى يا بنِي تميم ، قالوا : بشَّرْتنا فأعطِنا ، فدخل ناسٌ من أهل اليمن فقال : أقبلوا البُشرَى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا جئناك لنتفقه في الدِّين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ، قال : كان اللهَ ولم يكن شيء قبلهُ ، وكان عرشه على الماء ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ ، وكتب في الذكر كل شيء) [٢] .

فالمعتزلة استبدلوا قول رسول الله ﷺ : وكتب في الذكر كل شيء ، بقولهم : إن

---

(١) حلية الأولياء ٩/١٩٧.

(٢) البخاري في كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ٦/ ٢٦٩٩ (٦٩٨٢) .

الله خلق الذكر ، لكي يوافق ذلك مذهبهم في القول بخلق القران [(١)] .

واحتج بعضهم على خلق القرآن بقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف:٣] ، فكل مجعول مخلوق ، فأجاب الإمام أحمد : ليس كل مجعول مخلوق ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤] ، وقال : ﴿ وَلاَ تَنقُضُوا الإِيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [النحل:٩١] ، وقد فتح الله على الإمام أحمد بن حنبل بمعاني النصوص وأفاض عليه بالحجج والردود ، وانقطع الآخرون وأصابهم اليأس ؛ فانطلقوا يشتمون ويقسمون قسم العاجزين [(٢)] .

قال سليمان بن عبد الله : أتيت إلى باب المعتصم وإذا الناس قد ازدحموا على بابه كيوم العيد ، فدخلت الدار فرأيت بساطا مبسوطا وكرسيا مطروحا ، فوقفت بإزاء الكرسي ، فبينما أنا قائم ، إذا المعتصم قد أقبل فجلس على الكرسي ، ونزع نعله من رجله ووضع رجلا على رجل ، ثم قال : يحضر أحمد بن حنبل ، فأحضر ، فلما وقف بين يديه وسلم عليه . قال له : يا أحمد تكلم ولا تخف . فقال أحمد : والله يا أمير المؤمنين لقد دخلت عليك ، وما في قلبي مثقال حبة من الفزع . فقال له المعتصم : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلام الله غير مخلوق قال الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة:٦] .

فقال له المعتصم : هل عندك حجة غيرُ هذا ؟ فقال أحمد : نعم يا أمير المؤمنين قول الله ﷻ : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ [الرحمن:١/٢] ، ولم يقل الرحمن خلق القرآن كما خَلَقَ الإِنسَانَ ، وقوله ﷻ : ﴿ يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يس:٢] ، ولم يقل يَس والقرآن المخلوق . فقال المعتصم : ناظروه . فلما غلبهم قال : احبسوه ، فحبس وتفرق الناس [(٣)] .

وفي اليوم الثاني أحضروه إلى دار الخليفة ، قال سليمان بن عبد الله : فلما أصبحت قصدت باب الخليفة فأدخل الناس فدخلت معهم ، فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه فقال : هاتوا أحمد بن حنبل ، فجيء به ، فلما أن وقف بين يديه ، قال له المعتصم :

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤٧/٢ .

(٢) حلية الأولياء ١٩٧/٩ بتصرف .

(٣) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٢ بتصرف .

كيف كنت يا أحمد في محبسك البارحة ؟ فقال : بخير والحمد لله إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمرا عجيبا . قال له : وما رأيت ؟

قال : قمت في نصف الليل فتوضأت للصلاة ، وصليت ركعتين ، فقرأت في ركعة الحمد لله وقل أعوذ برب الناس ، وفي الثانية الحمد لله وقل أعوذ برب الفلق ثم جلست وتشهدت وسلمت ، ثم قمت فكبرت لكي أصلي ركعتين ، وقرأت الحمد لله وأردت أن أقرأ قل هو الله أحد فلم أقدر ، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر ، فمددت عيني في زاوية السجن ، فإذا القرآن ميتا وجثته مغطاة فغسلته وكفنته ، وصليت عليه ودفنته في زاوية من زوايا السجن . فقال له : ويلك يا أحمد وهل القرآن يموت ؟ فقال له أحمد : أنت تقول إنه مخلوق وكل مخلوق يموت [(1)] .

فقال قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع ، وتتابع الحاضرون يلعنون ويسبون فلم يأخذ الخليفة بتشويشهم وأهاب بهم قائلا : ناظروه وكلموه ، فكانوا يتكلمون كلاما عقيما ، يقدمون آراءهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . قال أحمد : يا أمير المؤمنين أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ .

ثم أقبل قاضي القضاة المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد أقبل على أحمد يكلمه ويناظره فلم يلتفت إليه لفرط جهله فهو لا يرقى للمناظرة ، كما أنه قد رمى الإمام أحمد بالضلال والابتداع . قال المعتصم لأحمد : ألا تكلم أبي عبد الله بن أبي دؤاد ؟ قال أحمد : لا أعرفه من أهل العلم فأحدثه . فتوجه ابن أبي دؤاد بالكلام للخليفة وقال : أقسم يا أمير المؤمنين إن استجابة أحمد لرأي الخليفة أحبُ إليه من مائتي ألف دينار ، قال المعتصم : والله لئن أجابني لأطلقنه من قيوده بيدي . ثم قال : يا أحمد إني والله عليك لشفيق ، وإني لأشفق عليك شفقتي على ابني هارون . قال أحمد : أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ . وطال المجلس وغلب الهم على المعتصم ، وانتقل من الترغيب إلى الترهيب فقال المعتصم : يا أحمد أما كنت تعرف صالح الرشيدي ؟ قال أحمد : سمعت

---

(١) طبقات الحنابلة ١٦٤/١ ، وروي ذلك أيضا لعبادة أيام الخليفة الواثق حيث أدخل عليه والناس يُضربون ويقتلون في الامتحان فقال : أعظم الله أجرك أيها الخليفة ، فقال : في من ؟ قلت في القرآن ؟ قال : ويحك والقرآن يموت ؟ قلت : نعم ، أليس كل مخلوق يموت ؟ فإذا مات القرآن في شعبان فمن يصلي بالناس في رمضان ؟ فقال : أخرجوه فإنه مجنون ، تاريخ دمشق ٢٢١/٢٦ .

باسمه . قال المعتصم : لقد كان معلمي ومؤدبي ، وكان في ذلك الموضع جالسا وأشار إلى ناحية من القصر فسألته عن القرآن فخالفني ، فانتقمت منه ، يا أحمد أجبني إلى القول بخلق القرآن حتى أطلق عنك بيدي . فأعاد أحمد قولته : أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ [١] .

• انقطاع حجج المعتزلة ويأس المعتصم .

وركب الخليفة من الهم ما ركبه ، فقاموا وفضوا المجلس ، وردوا الإمام أحمد إلى السجن ، وكان ذلك في رمضان ، فذهب إليه رجلان من أصحاب أحمد بن أبي دؤاد يناظرانه ويلزمانه بخلق القرآن ، حتى إذا كان وقت الإفطار جيء بالطعام فحاول أن يفطر فلم يستطع من شدة الإجهاد والإرهاق [٢] .

وفي الليل جاءه قاضي القضاة ابن أبي دؤاد يقول له : إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس ، وإن أجبته جاء إليك وفك قيودك بيديه ، فلم يلتفت إليه الإمام فانصرف [٣] .

وفي اليوم التالي : أعيد أحمد إلى مجلس الخليفة وأعادوا المناظرة ، فإذا جاءوا بكلام ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله قال : ما أدري ما هذا . قال قائل منهم : يا أمير المؤمنين إذا توجهت الحجة له علينا ثبت ، وإن ألزمناه بشيء يقول : ما أدري ما هذا ؟ قال أحمد : لقد احتجوا عليا بشيء لا يقوى قلبي ولا ينطق لساني أن أحكيه أنكروا الآثار ، وما ظننتهم على هذا حتى سمعتُه منهم .

قال أحمد : فاحتججت عليهم بقوله تعالى : ﴿ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم:٤٢] ، فقالوا : شبه يا أمير المؤمنين [٤] .

وهم يعتقدون أن إثبات الصفات تشبيه وتمثيل ونفيها عدل وتوحيد ، فمذهبهم مبني على أمرين أساسين يحددان دوافعهم لتعطيل الكتاب والسنة :

الأمر الأول : هو قياسهم الخالق سبحانه وتعالى بالقوانين والمقاييس التي تحكم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٤٠/١١ بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٢ .

(٣) السابق ١٠/ ٣٣٢ .

(٤) السابق ١٠/ ٣٣٣ .

المخلوق فلم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو خاص بالمخلوق ، وهذا باطل لأن الله ﷻ منعنا أن نمثله بشيء من خلقه فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ، فيحرم قياس ذات الله وصفاته بذات المخلوق وصفاته ، فالله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه الوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله فقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم:٦٥] ، وقال : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:٤] .

ثم أوجب الله علينا أن نثبت صفاته كما قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، فالله ﷻ وحد نفسه في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ومع ذلك أثبت الصفات اللائقة بجلاله وكماله ، فعلمنا أن استواءه ونزوله ويده ووجهه وسمعه وبصره وكل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته رسوله ﷺ مخالف في الأصل لاستواء المخلوق ونزوله ويده ووجهه وسمعه وبصره وكل ما له من صفات الذات والأفعال .

فالإمام أحمد بن حنبل لما احتج عليهم بقوله تعالى : ﴿ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، قالوا : شبه يا أمير المؤمنين ، فالمبدأ الذي وضعوه لعقيدتهم في صفات الله هو قياس الخالق على المخلوق ، فلم يفهموا من كلام الخالق أو سمعه أو بصره إلا ما يرونه بأعينهم من صفات البشر ، ومن أجل هذا التمثيل البشع الذي صوروا به أوصاف الله أرادوا أن ينفوا دلالة القرآن الصريحة في إثبات الصفات .

الأمر الثاني : الذي يحدد مذهب هؤلاء المبتدعة أنهم لما نظروا إلى الخالق سبحانه وتعالى بنفس الكيفية للصورة البشرية وجدوا أن الصورة التي يتخيلونها عن ذات الله وصفاته صورة قبيحة جدا فوقعوا بين نارين :

١- إما أن يكذبوا بالنصوص الواردة في وصف الله بتلك الصورة التي تخيلوها ويعطلونها عن مدلولها كما فعل الجهم بن صفوان وقال عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت ، وهم إن فعلوا ذلك كفروا لردهم كلام الله ﷻ

٢- وإما أن يحولوا مدلول الآيات إلى أمور معنوية مجازية لا تدل على حقيقة معينة وهذا هو الدافع المباشر لانتشار التأويل والدفاع عنه بكل سبيل ، وهو ما فعله المعتزلة ومن جاء بعدهم من الأشعرية كما سنرى على اعتبار أن ذلك أخف الأمرين في

اعتقادهم ، فالزمخشري المعتزلي قال في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ [ق:٣٠] ، قال : سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته [(١)] .

جعل الزمخشري قول الله الصريح الواضح الحقيقي أمرا معنويا مجازيا لا حقيقة له وجعله مجرد خيال لا يدل على شيء ، فالله تعالى أثبت لنفسه الكلام صراحة كما يليق بجلاله ، وأثبت الكلام لجهنم كما يليق بها وإن كنا لا ندري كيف تتكلم والزمخشري نفى ذلك وجعله مجرد خيال ، ولو سألنا عن الدافع وراء ذلك لوجدنا الجواب هو قياسهم كلام الخالق على كلام المخلوق ، فلو كان الخالق متكلما في نظرهم لكان له لسان وفم وهذا أصل الضلال .

واحتج عليهم أحمد في مناظرته لهم بين يدي الخليفة المعتصم بحديث الرؤية الذي رواه بسنده عن قَيْس بن أَبِي حَازِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله قَال : (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَال : إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَل كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا على هَاتَيْنِ الصَّلاتَيْنِ قَبْل طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل الْغُرُوبِ ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْل طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل الْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩] [(٢)] .

وأحاديث الرؤية من الأحاديث المتواترة ، لكن لما سمع الحديث قاضي القضاة أحمد ابن أبي دؤاد انصرف متوجها إلى على بن المديني من كبار المحدثين ، مستغلا أزمته ومحنته وانقطاع راتبه من الدولة لمدة عامين بسبب وقفته للحق وعدم الاستجابة إلى القول بخلق القرآن ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وما تأخر من مستحقاته ، وقال لعلى : هذه هدية من أمير المؤمنين .

ثم قال له : يا أبا الحسن ما تقول في حديث الرؤية ؟ قال علي : حديث صحيح قال قاضي القضاة : هل عندك فيه شيء ؟ قال علي : يعفني القاضي من هذا . قال قاضي القضاة : يا أبا الحسن هذه حاجة الدهر فاجعل مخرجا لضعفه ، ولم يزل به حتى قال علي : في الإسناد من لا يعول عليه ولا على ما يرويه وهو قيس بن حازم إنما كان

(١) الكشاف الزمخشري ٩/٤ .

(٢) البخاري في التوحيد ، باب قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة : إلى ربها ناظرة ٩/ ٣ : ٢٧ (٦٩٩٧) .

أعرابيا . ففرح بن أبي دؤاد وذهب مسرعا إلى مجلس المعتصم يجرح قيسا وينفي صحة الحديث ، فعلم أحمد جهله لأن المحدثين جميعا يعدلون قيسا فهو من أجود التابعين إسنادا (١) .

فقال رجل للإمام أحمد : ما تقول في قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ أليس ذلك عاما في جميع الأولاد ؟ فقال أحمد : خص الله بها المؤمنين دون الكافرين . قال أحمد : فقلت له ما تقول في الوارث إن كان قاتلا أو عبدا فسكت . قال أحمد : وإنما احتججت عليه بهذا لأنهم كانوا يحتجون بالعموم في قوله ﷻ : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] على خلق القرآن ، فبينت أن السنة خصصت العموم ، فأخرجت القاتل والعبد من عموم الآية (٢) .

ولم يزالوا به من الصباح حتى الظهر وهو صامد بقوة الله وتوفيقه وإجراء الحكمة على لسانه ليدافع عن منهج الحق ، أهل السنة والجماعة ، حتى غضب المعتصم واكفهر وجهه ، وقام من المجلس وتركه ، فردوه إلى سجنه وقيوده مرة أخرى .

• المعتصم يأمر بجلد الإمام أحمد بن حنبل .

وفي الصباح أدخل الإمام أحمد بن حنبل على الخليفة وقد ملئت الدار بالحاضرين فجعلوا ينقلونه من موضع إلى موضع فيرى سيافين وجلادين ، وأناسا آخرين ، أعدهم المعتصم لينالوا من الإمام إذا أصر على موقفه ، فلما انتهى إلى مجلس الخليفة أقعده ثم قال للحاضرين : ناظروه وكلموه . فناظروه وكلموه وصوت الإمام يعلوا أصواتهم وحجته تدحض شبهاتهم حتى ضاق به المعتصم زرعا ، وبلغ منه الغضب والكرب مبلغه فوسوس الخبيث أحمد بن أبي دؤاد وهمس للخليفة قائلا : إن تركته سيقول الناس إنك تركت مذهب المأمون ووصيته ، وأنه غلب على خليفتين فهاج الخليفة وانتصر لسلطانه ، وقام إلى أحمد وقال : عليك اللعنة خذوه واسحبوه وقيدوه وعلقوه .

ثم جلس على كرسي ونادي : أحضروا العقابين والسياط ، والعقبان خشبتان منصوبتان ، يربط فيهما المجلود من يديه ، ويرفع عن الأرض ليبقى معلقا فيهما . فقال

---

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٢١٦/١١ .

(٢) حلية الأولياء ٢٠٠/٩ .

أحمد : يا أمير المؤمنين : اللهَ اللهَ ، إن رسول الله ﷺ قال : (لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلجَمَاعَةِ)[١] . وإنه قال : (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ على اللهِ)[٢] ، فبم تستحل دمي ولم آت شيئا من هذا ؟

يا أمير المؤمنين : تذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك ، فارتجف الخليفة المعتصم من قوله وكأنه أراد أن يعفو عنه . فقال أهل الضلال من المعتزلة : يا أمير المؤمنين إنه كافر ضال مضل ، هو والله ضال مضل مبتدع ، وتتابع الحاضرون يلعنون الإمام ويسبونه . قال أحمد : فأمر بي فقمت بين الخشبتين وجئ بكرسي فوقفت عليه فهمس إلى بعضهم وأمرني أن آخذ بيدي بأي الخشبتين ، فلم أفهم ما قال ، فتخلعت يداي ثم أمر بضربي .

سبحان الله ، كان الجلاد الذي قام بتعليق الإمام وربطه في الخشبتين ينفذ الأمر خوفا من الخليفة ، فأشفق على الإمام وهمس إليه دون أن يسمع المعتصم أن لا يترك جسده ويديه للحبل لأن مفصل اليدين لا يتحمل ثقل الجسم ، فأراده أن يمسك بيديه في الخشبتين ، فسبحان من جعل قلب جلاده معه ، لكن الإمام أحمد علق بالخشبتين وصار بينه وبين الأرض مقدار قبضة[٣] .

قال المعتصم : اضربوه ، فلما ضرب أحمد رحمه الله سوطا ، قال : بسم الله . فلما ضرب الثاني قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق . فلما ضرب الرابع قال : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا[٤] .

وقد اجتمع الناس وكبار المحدثين ، في الوقت الذي يضرب فيه الإمام وهم في ثورة وغضب ، بعضهم خارج أسوار القصر ينتظرون خروج الإمام ، وبعضهم في الطرقات

---

(١) البخاري في كتاب الديات ٦/ ٢٥٢١ (٦٤٨٤) .

(٢) البخاري في كتاب الاعتصام ، باب قول الله تعالى : وأمرهم شورى بينهم ٦/ ٢٦٨١.

(٣) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١١/٢٥٥ .

يدعون للإمام بالصبر والثبات ، وبعضهم في بيت عاصم بن علي ومعهم أبو عبيد القاسم بن سلام وإبراهيم بن الليث وغيرهم [(١)] .

فجعل عاصم بن علي يقول : ألا يقوم رجل معي فنأتي الخليفة فنكلمه ، فما يجيبه أحد من الخوف وبطش الخليفة . فقال أحدهم : أنا أقوم معك ، ولكن أني لعاصم بن علي أن تأتيه الجرادة في الحق ، وقد امتحن في خلق القرآن فأجاب بأنه مخلوق . وقد كانت بنات عاصم قد أرسلن لأبيهن أن يبلغ أحمد أنهن يقلن له : إن نعيك أحبُ إلينا من أن تجيب الخليفة إلى القول بخلق القرآن . وكذلك كان موقف النساء من المحنة بارزا في بكائهن الشديد على الإمام ودعائهن له بالثبات على الدوام في وجه هذا الظلم والإجرام [(٢)] .

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى باب المعتصم يحجبه الحرس ، وهو يرفع صوته بين الناس ويقول : أيضرب سيدنا ومولانا ، أيضرب سيدنا ومولانا . ووقف بشر بن الحافي الصوفي خارج القصر حيرانا يدعوا الله ويقول : اللهم ثبته اللهم ثبته ويتابع كل من خرج من دار المعتصم ويقول له : إن كان أجاب الخليفة إلى القول بخلق القرآن أدخل فأقوم مقامه ، فخرج رجل فقال : لم يجبهم فقال بشر : الحمد الله [(٣)] .

وظلت القلوب معلقة بالموقف بين دعاء بالتثبيت للإمام أو دعاء على الظالمين بالانتقام ، وقد أرسلوا أبا بكر المروزي ينقل أخبار المحدثين إليه وينصحه بالإجابة للخليفة تقية . فيقول له أحمد : أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء الناس .

ولم يزل الإمام قائما بين العقابين والسياط تقطع جسده ، كل جلاد يضرب سوطين ثم ينصرف ، حتى ذهب وعيه بعد ثمانية وثلاثين سوطا ، فأحدث ذلك ذعرا عند الحاشية والزبانية ، فلما سكن الضرب عاد عقله مرة أخرى ، فقام المعتصم حتى وقف أمامه وقال له يا أحمد : أجبني إلى القول بخلق القرآن وأنا أطلق عنك بيدي . فقال أحمد : آتوني شيئا من كتاب الله وأنا أجيبكم . وجعلوا يقولون له : ويحك الخليفة على رأسك . فلم يقبل عليهم بشيء ، فأعادوا الضرب ، ثم دعاه الخليفة مرة أخرى فلم

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٤ .

(٢) تاريخ بغداد ١٢/٢٤٩ بتصرف .

(٣) السابق ١٢/٢٤٩ بتصرف .

يغفل من شدة الضرب حتى ذهب عقله وحسه ، فأرعب ذلك المعتصم وأحس بقوة الحق التي تدفع الإمام أحمد إلى الصبر والثبات ، فأمر به فأطلقوه [(١)] .

وأفاق الإمام أحمد من غيبوبته فوجد القيود قد حلت من يديه ورجليه ، قال له أحدهم : إنا كببناك على وجهك ، وطرحنا عليك بارية ودسناك بأقدامنا [(٢)] .

وضرب الإمام أحمد رحمه الله نحو ثمانين سوطا ضربا مبرحا شديدا حتى سال دمه على ثيابه ، وتقطع اللحم من جسده ، فحملوه من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم نائب الخليفة على بغداد ، وكان الإمام صائما ، فجاءوا بشراب ليفطر فامتنع من ذلك وأتم صومه ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين . وقد جعل الإمام أحمد كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلوا في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢] ، ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب المسلم بسببك ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى:٤٠] [(٣)] .

وبعد الامتحان أجاب الفقهاء الكبار إلى القول بخلق القرآن تقية ، ومنهم أعلام المحدثين كيحيي بن معين ، وأبو خيثمة زهير بن حرب حيث أقرا بذلك بين يدي الخليفة المأمون ، وكذلك أقر أبو نصر التمار ، وهؤلاء كانوا عند الإمام أحمد في مرتبة عليا ولم يكن يتوقع منهم سرعة الإجابة إلى القول بخلق القرآن ، فكان يقول فيهم : لو كانوا صبروا وقاموا لله لانقطع الأمر وخافهم الرجل ، ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم [(٤)] .

وشعر كثير من أهل العلم بالندم على إجابته ، وعدم الثبات على الحق في وجه الخليفة كما فعل الإمام أحمد ، قال أبو معمر القطيعي بعد أن أجاب إلى القول بخلق القرآن وخرج من دار الخليفة : لو تكلمت بغلتي هذه لقالت إنها سنية [(٥)] .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٤ بتصرف .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٥٢/١١ .

(٣) البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٤ .

(٤) السابق ١٠/ ٣٣٥ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٧٠/١١ .

يعني أنها على مذهب الإمام أحمد بن حنبل في إثبات الصفات لله على ما يليق به لأن هذه هي الفطرة ، وقال سعدويه وقد حج ستين حجة ، بعد أن أجاب وخرج من دار الخليفة : يا غلام قدم الدابة على مولاك ، فإن مولاك قد كفر قيل له : ماذا فعلتم ؟ قال : كفرنا ورجعنا [(١)] .

جاءه الجراح فقطع من جسد الإمام لحما ميتا وجعل يداويه ، ونائب الخليفة يسأل عنه في كل وقت ، فالمعتصم ندم على ما كان منه في حق الإمام أحمد بن حنبل ندما شديدا ، وجعل يسأل النائب عنه والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفي فرح المعتصم وفرح المسلمون بذلك .

قال الحسن بن عرفة : (دخلت على أحمد بن حنبل بعد المحنة ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، قمت مقام الأنبياء ، فقال لي : اسكت فإني رأيت الناس يبيعون دينهم ، ورأيت العلماء ممن كان معي يقولون ويميلون ، فقلت : من أنا وما أنا وماذا أقول لربي غدا إذا وقفت بين يديه جل جلاله ، فقال لي بعت دينك كما باعه غيرك ، ففكرت في أمري ونظرت إلى السيف والسوط فاخترتها ، وقلت : إن أنا مت صرت إلى ربي ﷻ فأقول دعيت إلى أن أقول في صفة من صفاتك مخلوقة فلم أقل ، فالأمر إليه إن شاء عذب وإن شاء رحم ، قال له الحسن بن عرفة : وهل وجدت لأسواطهم ألما ؟ قال : نعم ، وتجلدت إلى أن تجاوزت العشرين ، ثم لم أدر بعد ذلك ، فلما حل العقابان كأني لم أجد له ألما ، وصليت الظهر قائما ، قال الحسن : فبكيت ، فقال لي : ما يبكيك ؟ قلت : بكيت مما نزل بك ، قال : طالما لم أكفر بالله فما أبالي لو تلفت) [(٢)] .

وقد ظل أمر العقيدة أيام المأمون والمعتصم والمذهب الرسمي للخلافة الإسلامية في جميع الأقطار هو مذهب المعتزلة ، المساجد مكتوب عليها : لا اله إلا الله رب القرآن وخالقه ، والفقهاء والمحدثون وغيرهم من العلماء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد ممنوعون من الجلوس في المساجد للفتيا وتبليغ العلم ، والسجون مكتظة بمن أنكر على المعتزلة ، والناس يهربون إلى البادية ، ويفرون إلى البراري خوفا من البطش وفرارا بدينهم ، فكم من دماء سفكت وكم من رقاب قطعت ، وكم من رؤوس علقت وكم من

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٣/٢ ، البداية والنهاية ١٠/ ٣٣٥ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/١٤٠ .

خطباء وأئمة عزلت ، لأنهم عارضوا سياسة الدولة في عقيدتها ، ولم يبق في الشارع العام إلا كل جبان يخاف على نفسه ، فما من فقيه أو محدث أو إمامٍ أو مؤذن أو قاضٍ أو معلم إلا ويقول بنفي أوصاف الله وأن الله لا يتكلم وأن القرآن مخلوق ، وأن تقديم العقل والهوى على كتاب الله عندهم هو أساس التوحيد والعدل .

وقد ظهر جيل جديد من الأمة شب وترعرع في هذه البيئة الفكرية القذرة التي ساد فيها مذهب المعتزلة تحت غَبَاءِ بعضِ الخلفاء الذين لجموا العلماء الضعفاء من النطق بكلمة الحق .

• موت المعتصم وتولى الخليفة الواثق.

وفي أيام الخليفة الواثق الذي تولى الخلافة بعد المعتصم امتحن الناس أيضا في خلق القرآن ، روى الخطيب البَغدادي أن دعبلا بنَ على الشاعر المعروف لما تولىٰ الواثق الخلافة كتب أبياتا شعرية في رقعة ، ثم جاء إلى حاجب الخليفة فدفعها إليه وقال : أقرِأ أمير المؤمنين السلام وقل له هذه أبيات امتدحك بها دعبل ، فلما فتحها الواثق وجد فيها :

الحمد لله لا صبر ولا جدل : ولا عزاء إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد : وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه : وقام هذا فقام الويل والنكد

فطلبه الواثق حيا أو ميتا وبكل ما يقدر عليه الجند من البحث والطلب فلم يتمكن من القبض عليه حتى مات [١] .

وقد ظل الواثق على عقيدته في خلق القرآن وشدد على الناس الامتحان وترك العنان لحاشيته من أهل الضلال يعيثون في الأرض فسادا بمذهبهم الباطل حتى بلغ بهم الحال إلى أن يمتحن الأسرى من المسلمين ، وكان لدى الروم ألف وستمائة أسير مسلم فقال ابن أبي دؤاد قبحه الله : من قال من الأسرى القرآن مخلوق خلصوه وأعطوه دينارين ، ومن امتنع دعوه في الأسر يقتله الروم [٢] .

---

(١) تاريخ بغداد ١٧/١٤ بتصرف .

(٢) تاريخ الخلفاء ٣٤١/١ بتصرف .

وقد ذبح الواثق كثيرا من المسلمين المخالفين لمذهبه حتى قتل العالم الجليل أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه ، وكان جده مالك ابن الهيثم من أكبر الدعاة إلى الدولة العباسية الذين قتلوا ولده هذا ، وكان أحمد بن نصر له وجاهة ورياسة وكان أبوه نصر بن مالك يتردد عليه أهل الحديث [1] .

وقد اتفق أحمد بن نصر مع المحدثين وعامة الناس على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين كثر الفساد وانتشرت الرزيلة وأبيحت في بغداد الدعارة ، وكان أحمد بن نصر من أهل العلم والدين والعمل الصالح والاجتهاد في الخير ، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل من الله غير مخلوق [2] .

وكان الخليفة الواثق من أشد الناس عصبية في القول بخلق القرآن ، وكان يدعو إليه ليلا ونهارا وسرا وجهارا من غير دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولا سنة ولا قرآن ، ومن شدة الكبت الذي عاناه الناس في عدم إظهار الحق ، وقيام الملك في دولة الإسلام على البدعة وعلم الكلام وغير ذلك من أنواع الظلم والطغيان ، قام هذا العالم الجليل أحمد بن نصر الخزاعي يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدعو علنا إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل من السماء غير مخلوق وأشياء كثيرة دعا الناس إليها [3] .

• قصة أحمد بن نصر الخزاعي .

اجتمع على أحمد بن نصر جماعة من أهل بغداد والتف عليه من الألوف أعداد وتطوع للدعوة مع أحمد بن نصر رجلان ، وهما أبو هارون السراج حيث يدعو أهل الجانب الشرقي ، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي ، فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة وجماعات غزيرة أشبهت المظاهرة العامة في بغداد . ثم تعاهد الناس فيما بينهم وبايعوا أحمد بن نصر الخزاعي على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على السلطان ، وذلك لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن ولانتشار الفواحش والرزيلة والعصيان بينه وبين أمرائه وحاشيته وبطانته ، فتواعدوا

---

(١) السابق ٣٤١/١ بتصرف .

(٢) تاريخ الطبري ٢٨١/٥ بتصرف .

(٣) السابق ٢٨٢/٥ بتصرف .

على أنهم في ليلة الجمعة الليلة الثالثة من شعبان تواعدوا على أن يجتمع الناس للخروج على السلطان [١] .

غير أن خطأ ما حدث في خطتهم ووشي بهم بعض المنافقين من شيعتهم ، وأعلموا حرس الخليفة عن ليلتهم ، فقبضوا على أحمد وأتباعه في ليلة جمعتهم ، وأرسلوا بهم إلى الخليفة في سرى من رأى في آخر يوم من شعبان ، فأحضر الخليفة له جماعة من الأعيان ، وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، وأحضر أحمد بن نصر الخزاعي فلما أوقفوه بين يدي الواثق ، لم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل أعرض عن كل ذلك وقال له : ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، وكان أحمد بن نصر قد رتب نفسه على أنه سيقتل ، فاغتسل قبل أن يقبضوا عليه ، وتطيب بحنوطه استعدادا للقاء ربه ، وشد ثيابه على عورته حتى لا يتكشف ، فقال له الواثق : فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة ؟ [٢] .

من المعلوم في عقيدة السلف الصالح التي بنيت على الكتاب والسنة ، أن الرؤية حق لأهل الجنة ، بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا ، فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة:٢٢] ، وكذلك كل ما جاء من الحديث الصحيح عن رسول الله فهو كما قال ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، كما فعل الخليفة الواثق هو وأبوه المعتصم وعمه المأمون ، فإنه لم يسلم في دينه إلا من سلم لله ولرسوله ، فقول هؤلاء الخلفاء ، باطل مردود بالكتاب السنة ، وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون ، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، وأهل الحديث وسائر المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة ، كما أن رؤية الله مسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون وحرمها أهل الضلال والبدعة ، الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مردودون [٣] .

---

(١) السابق ٢٨٣/٥ بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ٣٠٤/١٠ بتصرف .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٨٩ بتصرف .

وأما الأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ، فهي أحاديث متواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن ، فمنها حديث أبي هريرة ﷺ : أن ناسا قالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا ، قال : فإنكم ترونه كذلك)[(١)].

وهذا الحديث مروي في الصحيحين ، وعند البخاري من حديث أبي بكرٍ بن عبد الله بن قيس عن أبيه ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : (جنّتانِ من فِضّة آنيتُها وما فيهما وجنّتان من ذهبٍ آنيتهما وما فيهما ، وما بينَ القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رِداءُ الكبرِ على وَجهِه في جنةِ عَدْنٍ)[(٢)].

وعند البخاري أيضا من حديث عدي بن حاتم ﷺ : (وليلقيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينَهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ فيقولنَّ : ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلغك ؟ فيقول: بلى ، فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفضِل عليك ؟ فيقول : بلى ، فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنّم ، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَم)[(٣)].

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا ، وقال الله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس:٢٦] ، فالحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الكريم فسرّها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده ، كما روى مسلم عن صهيب ﷺ قال قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] فقال : (إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ نادَى مُنادٍ : يا أهل الجنةِ ، إنّ لكُمْ عندَ الله مَوْعِداً يُحِبُّ أنْ يُنجزَكُموهُ ، فيَقُولونَ: وما هُو؟ ألَمْ يُثَقِّل اللهُ موازينَنا ويُبَيِّضْ وُجوهَنا ويُدْخِلنا الجنةَ ويُجِرْنا من النار؟ قال : فيُكْشَفُ الحِجَابُ فيَنْظُرونَ إليه فواللهِ ما أَعْطاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إليهم مِنَ النَّظرِ إليه)[(٤)].

---

(١) البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ٦/ ٢٧٠٤ (٧٠٠٠) .

(٢) الموضع السابق ٦/٢٧١٠ (٧٠٠٦) .

(٣) البخاري في كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد ٢/٥١٢ (١٣٤٧) .

(٤) مسلم في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/١٦٣(١٨١) ، وأحمد في المسند ٤/٣٣٢ (١٨٩٥٦) واللفظ له .

وقال تعالى : ﴿ كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] ، قال الربيع بن سليمان : حضرت محمد إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من صعيد مصر فيها ما تقول في قول الله ﷻ : ﴿ كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] ، فقال الشافعي : لما أن حجب هؤلاء في السخط ، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا [(١)] .

فلما قال الواثق لأحمد بن نصر الخزاعي : ما تقول في ربك أتراه يوم القيامة ؟ فقال يا أمير المؤمنين : قد جاءت آيات القرآن ونصوص السنة بذلك قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢/٢٣] ، وقال رسول الله ﷺ : (إنكم تَرَوْن ربكم كما تَرَوْن هذا القمر لا تضامون في رؤيته) [(٢)] ، فنحن على الخبر . قال الواثق : تكذب على رسول الله ، فقال للواثق : بل أنت الذي تكذب على رسول الله ، فقال : ويحك أيرى كما يرى الجسم المحدود ويحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته ، فلما قال الواثق ما قال في إنكار ما ثبت عن رسول الله ، أراد أحمد بن نصر الخزاعي أن يحتقر الواثق وأن يبالغ في إغاظته بإثبات السنة ، فقال للواثق : وحدثني سفيان بحديث يرفعه إلى رسول الله ﷺ : (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) [(٣)] ، وكان النبي ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقول : (يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ) [(٤)] .

فقال له إسحاق بن إبراهيم وإلى الخليفة على بغداد : ويحك ، انظر ماذا تقول؟ فقال : أنت أمرتني بذلك ؟ فأشفق إسحاق من ذلك ، وقال : أنا أمرتك ؟ قال : نعم أنت أمرتني أن أنصح للخليفة ، ومن النصح له أن يثبت ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ ، فقال الواثق لمن حوله : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فأكثروا القول فيه فقال عبد الرحمن بن إسحاق ، وكان قاضيا على الجانب الغربي من بغداد فعزل ، وكان صديقا لأحمد بن نصر قبل ذلك فأقر بخلق القرآن ، قال : يا أمير المؤمنين هو حلال

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١٨٨ بتصرف .

(٢) تقدم تخريجه ص٧٢ .

(٣) مسلم في القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ٢٠٤٥/٤ (٢٦٥٤) .

(٤) الترمذي في القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن ٤٤٨/٤ (٢١٤٠) ، صحيح الجامع (٤٨٠١) .

الدم ، وقال آخر : اسقني دمه يا أمير المؤمنين ، فقال الواثق : لابد أن يأتي ما تريد . وقال أحمد بن أبي دؤاد : هو كافر يستتاب ، لعل به عاهة أو نقص عقل ، فقال الواثق : إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي ، فإني أحتسب خطأي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربا لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها ، ثم نهض إليه بالسيف وضربه على عاتقه وهو مربوط بحبل ، وقد أوقفوه على نطع ، ثم ضربه مرة أخرى على رأسه ، ثم طعنه بالسيف في بطنه ، فسقط صريعا رحمه الله على النطع ميتا [١] .

ثم قام أحد الحاضرين بسيفه فضرب عنقه وحز رأسه ، ثم حملوا جثته مفصولة عن رأسه ، وكان في رجليه زوج من القيود ، وعليه سراويل وقميص ، فعلقت الجثة في سري من رأى فصلب فيها ، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما معدودة وفي الغربي أيضا وعنده الحرس في الليل والنهار ، وقد علقوا في أذنه رقعة مكتوب فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ممن قتل على يدي الخليفة الواثقِ بالله أميرِ المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح بإثبات الصفات ، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بكفره وخروجه على الحق فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه [٢] .

ثم أمر الخليفة الواثق باعتقال أتباعه فأودع نحو ثلاثين رجلا منهم في السجون وأطلق عليهم الخليفة اسم الظلمة ، ومنعوا أن يزورهم أحد ، وقيدوا بالحديد ومنعوهم من حقهم في الطعام والشراب ، وسائر الحقوق الأخرى التي كانت تجري على المحبوسين حتى ماتوا [٣] .

قال ابن كثير : (وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسمع الحديث من حماد بن زيد وسفيان بن عيينة

(١) تاريخ الخلفاء ٢٩٦/١ ، طبقات الحنابلة ٨١/١ .

(٢) السابق ٣٤١/١ .

(٣) البداية والنهاية ٣٠٤/١٠ .

وهاشم بن بشير ، وكانت عنده مصنفاته كلها ، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدة ، ولم يحدث بكثير من حديثه ، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحي بن معين ، وذكره يوما فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة ، وكان لا يحدث ، ويقول إني لست أهلا لذلك ، وأحسن يحي بن معين عليه جدا ، وذكره الإمام أحمد بن حنبل يوما فقال رحمه الله : ما كان أسخاه بنفسه لله لقد جاد بنفسه له ، وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناي وإلا فقئتا ، وسمعت أذناي وإلا فصمتا أحمد ابن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا الله وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:٢] ، قال : فاقشعر جلدي ، ورآه بعضهم في النوم فقال له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله ﷻ فضحك إلي ، ورأى بعضهم رسول الله ﷺ في المنام ومعه أبو بكر وعمر قد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر ، فلما جاوزوه أعرض رسول الله ﷺ بوجهه الكريم عنه ، فقيل له : يا رسول الله مالك أعرضت عن أحمد بن نصر؟ فقال : أعرضت عنه استحياء منه حين قتله رجل يزعم أنه من أهل بيتي)[١] .

ولم تزل رأسه منصوبة في بغداد من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان في سنة ومائتين وإحدى وثلاثين إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فجمع أهله بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقي من بغداد وكان ذلك بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق[٢] .

---

(١) السابق ٣٠٥/١٠ .

(٢) السابق ٣٠٦/١٠ .

الفصل الرابع

نهاية المحنة وقمع البدعة وظهور المذهب الأشعري

ظل الخليفة الواثق على بدعته في إلزام الناس بخلق القرآن مشددا الامتحان على الخاصة والعامة ، حتى حدثت مناظرة علمية في مجلسه بين عالم من علماء السنة وقاضيَ قضاة البدعة أحمد بن أبي دؤاد ، يقال إنها كانت سببا في رفع المحنة وهي بحق تعد قاعدة هامة في قمع البدعة وإفحام كل مبتدع .

- **قاعدة هامة في إفحام كل مبتدع.**

أدخل الشيخ أبو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأُزدي على الخليفة الواثق أمير المؤمنين وهو مقيد بالسلاسل ، وكان شيخا شاميا أمر قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد باعتقاله لأنه كان يقول بقول الإمام أحمد بن حنبل في إثبات صفة الكلام لله تعالى ، فسلم غير هائب ودعا فأوجز . قال له الواثق : يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظرك عليه. فقال الشيخ الأزدي : يا أمير المؤمنين هذا لا يقوى على المناظرة . فغضب الواثق لإهانته قاضي القضاة ، وقال : أبو عبد الله بن أبي دؤاد يضيق أو يقل ويضعف عن مناظرتك أنت ؟! فقال : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في كلامه ؟ فقال الواثق : قد أذنت لك .

ثم التفت الشيخ إلى أحمد بن أبي دؤاد وقال له : خبرني يا بن أبي دؤاد ، أمقالتك تلك ـ يقصد الشيخ بدعته في القول بخلق القرآن ـ واجبة في أصول الدين فلا يكون كاملا إلا بما قلت ؟ قال ابن أبي دؤاد : نعم . قال الشيخ أبو عبد الرحمن : هل ستر الرسول ﷺ شيئا مما أمر الله به المسلمين في أمر دينهم؟ قال ابن أبي دؤاد : لا . قال الشيخ : أفدعا إلى مقالتك هذه ؟ فسكت بنُ أبي دؤاد . قال الشيخ أبو عبد الرحمن للخليفة الواثق : يا أمير المؤمنين هذه واحدة .

ثم قال : يا ابن أبي دؤاد أخبرني عن الله تعالى حين أنزل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، فقلت أنت

الدين لا يكون تاماً إلا بمقالتك في خلق القرآن ، فهل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه ؟ فسكت بن أبي دؤاد . قال الشيخ أبو عبد الرحمن لأمير المؤمنين الواثق : يا أمير المؤمنين ثنتان . ثم قال : يا أحمد مقالتك هذه علمها رسول الله أم جهلها ؟ قال : علمها . قال الشيخ أبو عبد الرحمن : أفدعا الناس إليها؟ فسكت بن أبي دؤاد . قال : يا أمير المؤمنين ثلاث .

ثم قال : خبرني يا أحمد ، لمّا علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها هل وسعه أن أمسك عنها أم لا ؟ قال أحمد : علمها وسكت عنها . قال الشيخ أبو عبد الرحمن : وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة الله عليهم ؟ قال : نعم ، قال أبو عبد الرحمن : أفوسع رسول الله ﷺ أن علمها وأمسك عنها كما زعمت ولم يطالب بها أمته ؟ قال : نعم . فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الخليفة يقول : يا أمير المؤمنين إن لم يسعه ما وسع رسول الله السكوت عنه ، فلا وسع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله أن يسكت عنه . قال الواثق : نعم لا وسع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه ، فبكى وأمر بحل قيوده ، فجاذب الشيخ أبو عبد الرحمن الحداد على القيود يود لو يحتفظ بها .

قال الواثق : ولم ؟ قال : نويت أن تجعل بيني وبين كفني لأخاصم بها هذا الظالم يوم القيامة وبكى الشيخ أبو عبد الرحمن ، وبكى الواثق ، وبكى الحاضرون . قال الواثق : اجعلني في حل . قال : والله لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ إذ كنت رجلا من أهله . قال الواثق : تقيم معنا . قال الشيخ أبو عبد الرحمن : ردك إياي إلى الموضع الذي أخذني منه هذا الظالم أجدى عليك وأنفع لي ثم قام وخرج [(١)] .

وبعد هذه المناظرة بيت الولاة النية على رفع المحنة عن العباد ، فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ انتصر لأهل السنة ، وكان من أفضل خلفاء بني العباس لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون فإنهم أساءوا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدعة .

---

(١) انظر الشريعة للحافظ أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي ص٨ ، وانظر مختصر تاريخ دمشق ٣٦٢٥/١ ، ولمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد ص٥١ .

- **إكرام الله لأوليائه عند موتهم .**

وقد ظهر انتقام الله وعدله في الظالمين ومنتُه وفضله على المؤمنين ، وقد استبشر الناس بولاية المتوكل فإنه كان محبا للسنة وأهلها ، ورفع المحنة عن الناس وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ، ثم كتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه ، فاستدعاه إسحاق وأكرمه لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه ، وسأله عن القرآن ؟ فقال له أحمد : سؤالك هذا سؤال تعنت أو استرشاد؟ فقال : بل سؤال استرشاد . فقال : هو كلام الله منزل غير مخلوق فسكن إلى قوله [١] .

فلما علم أهل البدعة ظهور المودة بين الخليفة والإمام أحمد حاولوا الوشاية به فزعموا للخليفة أنه يريد قلب نظام الحكم ، وزعم رجل من المبتدعة عند الخليفة المتوكل يقال له ابن البلخي ، أن رجلا من العلويين نصبه أحمد بن حنبل خليفة وقد آواه إلى منزله وهو يبايع الناس له في الباطن ، فأمر الخليفة نائب بغداد أن تحاصر قوات الأمن الخاصة منزل أحمد من الليل ، فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطح ، فوجدوا الإمام جالسا في داره مع عياله ، فسألوه عما ذكر لهم ، فقال : ليس عندي علم من هذا وليس من هذا شيء ولا هذا في نيتي وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية وفي عسري ويسري ومنشطي ومكرهي وأثره على ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار ، ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء وسطح المنزل وغير ذلك فلم يروا شيئا مريبا [٢] .

ولما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيرا ، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم عطية من الخليفة ، فامتنع من قبلوها ، فقال رسول الخليفة : يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن تقع وحشة أو قطيعة بينك وبين الخليفة ومصلحتك في قبول عطيته ، فوضعها عنده ثم ذهب ، فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله ، وبني عمه وعياله وقال لهم : لم أنم هذه الليلة من هذا المال فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من الفقراء من أهل الحديث وغيرهم في بغداد والبصرة ، ثم

---

(١) البداية والنهاية ٣٣٧/١٠ بتصرف .

(٢) السابق ٣٣٧/١٠ بتصرف .

أصبح ففرقها في الناس ولم يُبق منها درهما ، حتى تصدق بالكيس الذي كانت فيه ولم يعط منها لأهله شيئا وهم في غاية الفقر والجهد [١] .

وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها فقال على بن الجهم : يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك وماذا يصنع أحمد بالمال ؟ إنما يكفيه رغيف من الخبز فقال الخليفة : صدقت . ثم كتب المتوكل إلى نائبة في بغداد أن يحمل إليه الإمام أحمد ، فقال إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك فأرسل الخليفة مصرا لتأتيني فإني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك وأن تحصل لي بركة دعائك ، فسار إليه الإمام أحمد وهو عليل في بنيه وبعض أهله ، فأنزله في قصر عظيم ، فلم يتحمل البقاء وارتحل عنها إلى دار أخرى [٢] .

وكان الأمراء كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام ، ولا يدخلون عليه حتى يخلعوا ما عليهم من السلاح ، وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها فاعتذر إليه في قبولها ، وأراد من الخليفة أن يحدث الناس عوضا عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين الطولية ، وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج ، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك ، ولم يكن يأكل من ذلك شيئا بالكلية ، بل كان صائما يطوي الأيام بالصوم ، ولما استمر ضعفه جعل المتوكل يبعث إليه الطبيب لينظر في مرضه ، فرجع إليه الطبيب وقال : يا أمير المؤمنين ، إن أحمد ليس به علة في بدنه ، وإنما علته من قلة الطعام ، وكثرة العبادة والصيام ، فسكت المتوكل [٣] .

وطلب الإمام أحمد أن يرده الخليفة المتوكل إلى بغداد ، فاستجاب له الخليفة وهو غير راض ، وظل يرسل له الأموال وأحمد يردها ولا يقبلها ، أو يتصدق بها ولا يأخذ منها شيئا ، وقد قال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاما ولا يشرب لك شرابا ، ولا يجلس على فرشك ويحرم ما تشربه ، فقال : والله لو قام المعتصم من قبره وكلمني في أحمد ما قبلت منه ، وجعلت رسل الخليفة تفد إليه في كل يوم

---

(١) السابق ٣٣٩/١٠ بتصرف .

(٢) السابق ٣٣٩/١٠ بتصرف .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٧٦/١١ بتصرف .

تستعلم أخباره وكيفية حاله ، وجعل يستفتيه في أموال أحمد بن أبي دؤاد فلا يجيبه بشيء [١] .

وقد كتب رجل من المعتزلة رقعة إلى المتوكل يقول فيها : يا أمير المؤمنين ، إن أحمد يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة ، فكتب فيها المتوكل ، أما المأمون فانه خلط الحق بالباطل فسلط الناس على نفسه ، وأما أبي المعتصم فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام ، وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه ، ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط ، فأخذه عبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط ، فقال له الخليفة : لم ضربته خمسمائة سوط؟ فقال : مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ، ومائة لكونه قذف الشيخ الصالح أحمد بن حنبل [٢] .

وقد كتب الخليفة المتوكل إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد ، فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم ، قال عبد الله بن أحمد : كتب عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى أبي يخبره أن أمير المؤمنين أمرني أن أكتب إليك أسألك عن القرآن ، لا مسألة امتحان لكن مسألة معرفة وتبصرة ، فأملى أبي إلى عبيد الله بن يحيى : (بسم الله الرحمن الرحيم أحسن الله عاقبتك في الأمور كلها ، ودفع عنك المكاره برحمته ، قد كتبت إليك رضي الله عنك بالذي سأل عنه أمير المؤمنين في القرآن ، وإني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان الناس في خوض من الباطل ، واختلاف شديد ينغمسون فيه حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين فنفى الله به كل بدعة ، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل ، وضيق المحابس فصرف الله ذلك كله ، وذهب به بما مكن به أمير المؤمنين ، ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما ودعوا الله لأمير المؤمنين ، وأسأل الله أن يستجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء وأن يعينه على ما هو عليه ، فقد ذكر عن ابن عباس ﷺ أنه قال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإنه يوقع الشك في قلوبكم) [٣] .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٤٠ بتصرف .

(٢) السابق ١٠/٣٤٠ بتصرف .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/٢٨١ بتصرف .

واشتد المرض على الإمام أحمد بن حنبل ، قال ابنه صالح بن أحمد : كان مرضه في أول ربيع الأول سنة مائتين وواحد وأربعين ، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم ضعيف ، ضيق النفس ، واجتمع الناس من الأكابر والعامة بالآلاف اجتمعوا حول بيته لعيادته ، وكتب الإمام أحمد وصيته ، جاء فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين وأن يحمدوه في الحامدين وأن ينصحوا المسلمين ، وأوصى أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ، وأوصى بالصدقة من ماله على من شاء ..) [١] .

ثم استدعى الصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم ، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوما فسماه سعيدا ، وكان له ولد آخر اسمه محمد ، قد مشى حين مرض فدعاه والتزمه وقبله ثم قال : ما كنت أصنع بالولد على كبر السن؟ فقيل له : ذرية تكون من بعدك يدعون لك ، فجعل يحمد الله تعالى [٢] .

وقال المروذي : مرض أحمد تسعة أيام ، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجاً يسلمون ويرد بيده ، وتسامع الناس بمرضه وتكاثروا على بيته ، وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل الحرس ببابه وعلى أبواب الشوارع المؤدية إلى بيته من شدة الزحام وتحقيقا للنظام ، فكان الناس متوافدين عليه في الشوارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل عليه ربما دخل من بعض الدور وطرز الحاكة وربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار وهم يمثلون الصحافة والإعلام في وقتنا فقعدوا على الأبواب ، وجاءه حاجب الأمير فقال : إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك ، فقال : هذا مما أكره ، وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره [٣] .

قال صالح بن أحمد : ودخل على أبي مجاهد بن موسى فقال : يا أبا عبد الله قد جاءتك البشرى ، هذا الخلق يشهدون لك ، ما تبالي لو وردت على الله الساعة

---

(١) تاريخ دمشق ٣٢٦/٥ .

(٢) البداية والنهاية ٣٤١/١٠ بتصرف .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٣٦/١١ بتصرف .

وجعل يقبل يده ويبكي ، ويقول : أوصني يا أبا عبد الله ، فأشار إلى لسانه [١] .

وكان أصحاب الخبر يكتبون إلى العسكر والبريد يتواصل كل يوم ، وجاء بنوا هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون عليه ، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم ودخل عليه شيخ فقال : اذكر وقوفك بين يدي الله فشهق أبو عبد الله وسالت دموعه ، ثم أشار إلى أهله أن يوضئوه ، فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي ، وهو يذكر الله ﷻ في جميع ذلك ، فما أكملوا وضوءه توفى رحمه الله [٢] .

صاح الناس بالدعاء وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت ولا ترى الشوارع إلا وقد امتلأت ، والناس يدعون له ويترحمون عليه فرحمه الله رحمة واسعة وقد أمر الخليفة أن يبعثوا له الكفن فردها أولاد الإمام وقالوا : إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره ، وأبوا أن يكفنوه بهذه الأكفان ، وكفنوه بثوب غزلته جاريته ، وخرج الناس بنعشه والخلائق من حوله لا يعلم عددهم إلا الله ، وقد اجتمع عليه من الناس قرابة المليونين ونصف للصلاة عليه ، وقد صلى عليه خلق كثير عند القبر بعد أن دفن لعدم اتساع المكان في المسجد ، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق الذين اجتمعوا من كل مصر [٣] .

وكان أحمد رحمه الله يقول : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز ، ويعني أن أهل العلم يحمدون عند موتهم بذكر موقفهم من التمسك بالسنة ومحاربة البدع والتفاف الناس حول آرائهم ، وقد بدا ذلك جليا يوم موت الإمام أحمد حيث صلى عليه جمع من المسلمين [٤] .

ولا تعرف جنازة في الجاهلية ولا في الإسلام كجنازة الإمام أحمد من كثرة من حضرها ، قال عبد الوهاب الوراق : ما بلغنا أن جمعا في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل [٥] .

---

(١) السابق ٣٤١/١١ بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ٣٤١/١٠ بتصرف .

(٣) السابق ٣٤١/١٠ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٣٤١/١١ بتصرف .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٤٠/١١ بتصرف .

(٥) السابق ٣٣٩/١١ بتصرف .

قال أحد جيران الإمام أحمد : يوم مات أحمد بن حنبل وقع المأتم والنواح في المسلمين واليهود والنصارى والمجوس ، وأسلم يوم مات عشرون ألفا ، وقد جاء كتاب المتوكل على الله إلى نائبه في بغداد بالعزاء وتعزية أولاده ، وأمر بحمل كتبه إلى دار الخلافة فأبى أولاده وبقيت عندهم [(١)] .

قال محمد بن خزيمة : لما مات أحمد بن حنبل اغتممت غما شديدا فرأيته في المنام وهو يتبختر في مشيته ، فقلت له : يا أبا عبد الله أي مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدام في دار السلام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد هذا بقولك القرآنُ كلامي ، يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها فدخلت فإذا أنا بسفيان الثوري ، وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة وهو يقول : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٤] [(٢)] .

هذا إكرام الله لعباده المؤمنين وإنعامه على أوليائه الموحدين في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦] ، وقال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥] .

• انتقام الله تعالى من أهل البدعة .

لقد جعل الله في قصة الإمام أحمد ومن ناصره على التمسك بالسنة آية شاهدة على عدل الله في الظالمين الذين استخدموا قوة الدولة لإرهاب الموحدين وقتل من خالفهم من عامة المسلمين وخاصتهم ، فانظر كيف ظهر انتقام الله لأهل الإيمان من أهل الظلم والطغيان ؟

دخل عبد العزيز الكناني على الخليفة المتوكل فقال : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت

(١) طبقات الحنابلة ١٦/١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٤٧/١١ بتصرف .

أعجب من أمر الواثق ، قتل أحمد بن نصر الخزاعي ، وكان لسانه يقرأ القرآن ، فوجل المتوكل من كلامه وساءه ما سمع في أخيه الواثق ، فلما دخل عليه وزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات ، قال له المتوكل : في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا . ودخل عليه هرثمة وكان قد حضر التمثيل بجثة أحمد بن نصر الخزاعي ، فقال قال له المتوكل : في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر فقال هرثمة : يا أمير المؤمنين قطعني الله إرباً إربا إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا . ودخل عليه الخبيث أحمد بن أبي دؤاد فقال له المتوكل : في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ضربني الله بالفالج بالشلل إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا [1] .

وقد تم عدل الله فيهم وهم أحياء فقد أمر الخليفة المتوكل بالقبض على الوزير ابن الزيات وزير الخليفة الواثق ، فطلبه الجند ليحضر إلى الخليفه ، فركب إليه بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بعث إليه يوليه كما كان في عهد أخيه ، فانتهى به الرسول إلى دار أمير الشرطة ، فاعتقلوه وقيدوه وأخذوه على الفور إلى منزله وأخذوا جميع ما فيها من الأموال واللآلئ والجواهر والجواري والأثاث ، ووجدوا في مجلسه الخاص آلات الشرب وكاسات الخمر .

وأمر المتوكل أيضا بمصادرة أمواله ومحاصيله وضياعه بمدينة سر من رأى ، وأمر جنده أن يعذبوه. ، كما عذب العلماء وحرض على ضربهم وقتلهم وصلبهم وتعليق رؤوسهم ، ثم منعوه من الكلام ونخسوه بالحديد كلما أراد أن ينام ، ومكث على هذا الحال عدة أيام ، ثم وضعوه بعد ذلك على خشب فيه مسامير وأوقفوه عليه ، ومنعوه من الجلوس أو النوم ، ثم أحرقوه في فرن أو تنور ، ثم أخرجوه من التنور مشويا وكان فيه رمق ، فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات ، ثم سلموا جثته إلى أولاده فدفنوه ، فنبشت الكلاب جثته وأكلت ما بقي من لحمه وجلده ، وقد سبق أن الخليفة المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي : فقال : يا أمير المؤمنين أحرقني

---

(١) المنتظم ١٦٨/١١ ، والبداية والنهاية ٣٠٦/١٠ ، تاريخ بغداد ١٧٨/٥ .

الله بالنار ، إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا ، قال الخليفة المتوكل : فأنا أحرقته بالنار [١] .

ماذا حل بالظالمين الآخرين الذين أفسدوا على المسلمين عقيدتهم بأهوائهم وبدعتهم بعد مهلك الوزير ابن الزيات ، أخرج الخليفة المتوكل رأس الفتنة أحمد ابن أبي دؤاد من مدينة سر من رأى إلى بغداد ، وذلك بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه ورد أمواله إلى بيت المال ، فاهتم واغتم وأصابه الشلل وأصبح عبرة للناس ببدعته ، لا يجد من يقوم على خدمته ، أو مساعدته في قضاء حاجته ، ولم يزل مشلولا أربعة أعوام ، وكل من يراه يقول انتقام الله للإمام العالم الجليل أحمد بن حنبل والشهيد الكبير أحمد بن نصر الخزاعي ، ظل هذا الخبيث الذي أذاق الأمة ألوان الابتلاءات يصارع الألم والمرض حتى مات ، وهو الذي قال : أصابني الله بالشلل ، إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا ، لما سأله الخليفة المتوكل عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي [٢] .

ولما رأى هرثمة المعتزلي ما حدث لرفقائه في المذهب الاعتزالي فر هاربا متخفيا فمر دون أن يدري بقبيلة خزاعة ، تلك القبيلة التي منها أحمد بن نصر الخزاعي ، فعرفه رجل من الحي ، فقال بأعلى صوته : يا معشر خزاعة ، هذا هو الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر وقطع رأسه ، فاجتمعوا عليه وقطعوه إرباً إربا ، قطعوا أوصاله ، ولم يتركوا شيا من جثته إلا مزقوها [٣] .

وصدق الله تعالى حيث قال : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر:٥١] ، وقال ﷻ : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢] ، فالقرآن الكريم له منزلة في قلوب المسلمين لا يزعزعها قوة

---

(١) البداية والنهاية ٣٠٦/١٠ ، وهذا الفعل من المتوكل لا يجوز لأنه قد ثبت عند أبي داود وصححه الألباني من حديث مُحَمَّدُ بنُ حَمْزَةَ الأَسْلَمِيُّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَّرَهُ عَلَى سَرِيَّةٍ قَالَ : فَخَرَجْتُ فِيهَا وَقَالَ : إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنَا فَاحْرِقُوهُ بِالنَّارِ ، فَوَلَّيْتُ فَنَادَانِي فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ : إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنَا فَاقْتُلُوهُ وَلاَ تُحْرِقُوهُ فَإِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ) انظر سنن أبي داود كتاب الجهاد ، باب في كراهية حرق العدو بالنار ٥٤/٣ (٢٦٧٣) ، وانظر صحيح أبي داود ٥٠٨/٢ (٢٣٢٧) .

(٢) البداية والنهاية ٣٠٦/١٠ بتصرف .

(٣) السابق ٣٠٦/١٠ بتصرف .

ولا يزلزلها بدعة مهما فعل المبتدعون ومهما أيدهم الظالمون ، فهو كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل ﷺ ، والمكتوب في المصاحف والمنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته والمبدوء بسورة الفاتحة ، والمختتم بسورة الناس وقد تلقاه النبي ﷺ بحروفه وألفاظه عن رب العزة ، تلك مسألة مسلمة عند جميع الصحابة والتابعين وأئمة السلف الصالحين .

بدعة كبرى تبناها أهل الضلال وزعموا فيها أن الله لا يتكلم ولم يتكلم بالقرآن وأن الذي تكلم بحروفه وأصواته هو جبريل أو محمد ﷺ ، وبنوا على هذا الأصل الفاسد أن القرآن مخلوق لأن كلام المخلوق مخلوق ، وقد كانت بداية المحنة التي فرضها خلفاء السوء من الموالين للمعتزلة سنة ٢١٨ هـ ، واستمرت أيام الخليفة المأمون والمعتصم والواثق ثم رفعت في عهد المتوكل سنة ٢٣٢هـ ، ذلك الخليفة الذي انتصر لأهل السنة وأكرم إمامهم الذي عذبوه الإمام أحمد بن حنبل ، وأنهى عهد البؤس الذي سيطرت فيه المعتزلة على الحكم ، وفرضوا عقائدهم بالقوة والظلم .

• خطورة البدعة وأثرها في انحراف الأمة .

قال بعض التابعين : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود ﷺ قبل الصلاة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري ﷺ فقال : أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ يقصد ابن مسعود ﷺ ، قلنا : لا ، فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعا ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفا أمرا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا ، قال فما هو ؟ قال : إن عشت فستراه ، قال : رأيت في المسجد قوما حُلُقَاً جُلُوساً ينتظرون الصلاة ، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول : كبروا مائة فيكبرون مائة ، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة ، فيقول سبحوا مائة فيسبحون مائة ، قال ابن مسعود لأبي موسى الأشعري ﷺ ، فماذا قلت لهم ؟ قال : ما قلت لهم شيئا ، انتظرك رأيك أو انتظر أمرك ، فقال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيآتهم فأنا أضمن لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء ، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة فوقف عليهم فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ، قال : فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء ، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكَتُكُم ، هؤلاء أصحابه

متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر ، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحوا باب ضلالة ، قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير ، فقال : وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وأيم الله لا أدري لعل أكثرهم منكم ثم تولى عنهم قال عمرو بن سلمة : رأينا عامة أولئك يطاعنونا يوم النهر مع الخوارج [(١)] .

والبدعة هي كل حدث في الدين بعد كماله وتمامه ، وهي ما لم يكن في عصر النبي ﷺ مما فعله أو أقر عليه ، أو أذنت فيه شريعته ، أو ما كان في عصر الصحابة رضي الله عنهم ، مما أجمعوا عليه قولا أو فعلا أو تقريرا [(٢)] .

وأصل كلمة البدعة من الاختراع ، وهو الشيء الذي يحدث من غير أصل سابق ولا مثالٍ محتذى ولا أُلف مثلُه ، ومنه قولهم أبدع الله الخلق أي خلقهم ابتداءً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧] ، وقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٩] ، والبدعة يدخل فيها ما تخترعه القلوب من عقائد ، وما تنطق به الألسنة ، وما تفعله الجوارح من طاعة بلا دليل عليها من كتاب أو سنة .

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني عن معاذ ﷺ أنه قال : (إن من ورائكم فتن يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر ، فيوشك أن يقول قائل : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ، ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإنما ابتدع ضلالة ، واحذروا زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق) [(٣)] .

لقد وقف الإمام أحمد بن حنبل لأهل البدعة وقفة يضرب بها المثل في الثبات على الحق والتمسك بالسنة ، فما قام أحد في الإسلام كما قام أحمد بن حنبل ، إلا أن

---

(١) السلسلة الصحيحة ١١/٥ (٢٠٠٥) .

(٢) انظر بتصرف الباعث على إنكار البدع والحوادث لعبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ص٢٠ ، تحريم النظر في كتب الكلام ص٥١ ، ذم التأويل ٢٩ ، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار ص١٢٠ .

(٣) أبو داود في كتاب السنة ، باب لزوم السنة ٦١٢/٢ (٤٦١١) .

البلاء استمر بعد خلافة المعتصم إلى عهد ولده الواثق ، فلا زال القول بخلق القرآن واعتماد عقيدة المعتزلة هو المنهج الرسمي لسياسة الدولة ، وأعاد الواثق امتحان الناس مرة أخرى كما فعل أبوه ، وابتلى بذلك خلق كثير في هذه البدعة الكبرى ، حتى قتل العالم الجليل أحمد بن نصر رحمه الله وأكرم مثواه كما تقدم ، وقد علق الواثق جثته في سر من رأى، ورأسه في بغداد لست سنوات .

هذه البدعة الكبرى التي امتحن فيها الناس لسنوات عديدة ، كان سببها المنهج الكلامي العقلي المستورد من الفكر الفلسفي اليوناني الذي سلكه أهل الضلال من الاعتزال ، والذي زعموا به أنهم يجتهدون في دين الله ويوفقون بين القواطع العقلية والنصوص الشريعة ، فكانت نتيجة اجتهادهم الباطل نفي أوصاف الله وتعطيلها ورد ما دلت عليه النصوص من إثبات الصفات ، ويا ليتهم ما اجتهدوا فقد كان اجتهادهم بلاء وشقاء على الأمة ورفع لراية البدعة .

وقد أمر الله ﷻ عباده بإتباع وحيه والاعتصام بطريقة نبيه ﷺ وحذرنا من مخالفة أمره قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] ، وقال ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] ، وقال ﷻ : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩] ، وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وقد حذر النبي ﷺ أمته من اتباع الأهواء والبدع ، وحذرهم من محدثات الأمور وأمرهم بالاتباع والسنة سلامة لهم من كل محذور ، روى ابن ماجة وصححه الألباني من حديث جابر ﷺ أنه قال : (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ : هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ . ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣])[1] .

---

(١) ابن ماجة في المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ٦/١ (١١) ، وانظر صحيح ابن ماجة ٧/١ (١١) .

وروى مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ) [١] .

وما أحسن ما قاله إبراهيم النخعي : (ما أعطاكم الله خيرا خبيء عن أصحاب رسوله وخيرته من خلقه) [٢] ، وهو يشير بذلك إلى ترك الغلو في الدين والاقتداء بعلماء السلف الصالح ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا على اللهِ إِلا الحَقَّ ﴾ [النساء:١٧١] ، فكل من فعل أمرا موهما أنه خير مشروع وليس كذلك فهو غال في دينه مبتدع فيه ، قائل على الله غير الحق بلسان مقاله أو لسان حاله كما فعل المعتزلة بالمسلمين .

جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقال : يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال : من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله ﷺ فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر ؟ قال : لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة ، فقال : وأي فتنة في هذه ؟ إنما هي أميال أريدها قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ ؟ فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] [٣] .

فأي فتنة أعظم من أن يرى المبتدع أن اختياره لنفسه خير من اختيار الله ورسوله ﷺ ، وأي فتنة أكبر من أنه خص نفسه بفضل لم يختص به رسول الله [٤] .

وحيث ما ورد الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك بالحق قليلا أو كان المخالف له كثيرا ؛ لأن الحق هو ما كانت عليه الجماعة الأولى وهم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، قال عمر بن ميمون الأودي : صحبت معاذ بن جبل

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ٦٩/١.
(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث لعبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ص٢٠ .
(٣) حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رضي الله عنه لمحمد ناصر الدين الألباني ص١١٠.
(٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص٢٠ بتصرف .

ﷺ باليمن فما فارقته حتى واريته التراب بالشام ، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود ، فسمعته يقول عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة ، ثم سمعته يوما من الأيام وهو يقول : سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة ، وصل معهم فإنها لك نافلة ، قال عمر بن ميمون لعبد الله بن مسعود قلت : يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون ؟ قال عبد الله : وما ذاك ؟ قلت : تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول لي صل الصلاة وحدك وهي الفريضة وصل مع الجماعة وهي نافلة ، قال عبد الله بن مسعود ﷺ : يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية ، تدري ما الجماعة ؟ قلت : لا ، قال : إن جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وإن الجماعة ما وافق الحق وأن كنت وحدك [(١)] ، وفي رواية يقول عمرو بن ميمون ﷺ : (فقال ابن مسعود وضرب على فخذي : ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى) [(٢)] .

قال نعيم ابن حماد : (قال عبد الله بن مسعود : إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وأن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة) [(٣)] .

• ظهور مصطلح السلف في مقابل الخلف .

تعد البدعة الكبرى من أبرز الأحداث التاريخية التي حدثت في تاريخ المسلمين والتي أدت إلى ابتلاء أصحاب العقيدة السنية السلفية بصورة هزت مشاعر الأمة وأسفرت عن ظهور مصطلح جديد لم يكن من قبل ، وهو مصطلح الخلف الذي أطلق في مقابل السلف ، فقد شاع إطلاق مصطلح السلف على الجيل المؤسس الذي أقام الدين وطبق منهج الإسلام ، جيل الصحابة ﷺ الذي تلقى عن رسول الله ﷺ البيان النبوي للبلاغ القرآني ، ثم انضم إليهم من اهتدى بهديهم واقتدى بسنة نبيهم من التابعين وتابع التابعين وأئمة المذاهب الفقهية الكبرى ، وقد ارتبط اصطلاح السلف بأمرين أساسيين أو عاملين مجتمعين ، عامل زمني وآخر منهجي :

أولا : العامل الزمني ويتناول كل من أدرك عصر خير القرون كما رواه البخاري من

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/١٠٨ .

(٢) السابق ١/١٠٩ .

(٣) الباعث على إنكار البدع ص٢٢ .

حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ)[١] .

والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، ويقال إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة واحدة أو مذهب أو عمل ، ويطلق القرن أيضا على مدة من الزمان ، ذكر الجوهري أن مدة القرن بين الثلاثين والثمانين ، وذكر ابن الأعرابي أنه من عشر إلى سبعين وهذا أعدل الأقوال وهو مأخوذ من الأقران[٢] .

وإذا نظرنا إلى المدة الزمنية التي تحدد العامل الزمني لإطلاق مصطلح السلف على من أدرك شيئا منها نجدها تنتهي بالوقت الذي تم فيه تغيير العقيدة على مستوى الخلافة الإسلامية من الطريقة السلفية إلى الطريقة الاعتزالية ، وذلك إلى حدود العشرين ومائتين ، كما أشار إلى ذلك ابن حجر بقوله : (واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ـ ممن يقبل قوله ـ من عاش إلى حدود العشرين ومائتين ، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رؤوسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القران ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن ، وظهر قوله ﷺ : ثم يفشو الكذب ظهورا بينا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان)[٣] .

ومن ثم فإن العامل الزمني الذي يضبط مصطلح السلف يقصد به تلك الفترة الزمنية أو فترة العصر الذهبي التي تمثل نقاء الفهم والتطبيق والتصديق لكل ما ورد في الكتاب والسنة ، وذلك قبل ظهور المذاهب التي وفدت بعد الفتوحات وأدخلت في الأمة مختلف الفلسفات غير الإسلامية .

وعليه فإن عصر السلف الصالح يمتد من زمن النبوة إلى زمن المحنة عندما تولى أهل الاعتزال إدارة الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة المأمون ، حيث فرض على الناس مذهبهم بقوة الدولة ، وامتحن علماء السلف في قضية خلق القرآن وتعطيل

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦٥) ٥/٢٣٦٢ .
(٢) فتح الباري لابن حجر ٥/٧ .
(٣) السابق ٦/٧ .

الصفات الإلهية .

ثانيا : العامل المنهجي ، فمن تحقق فيه العامل الزمني السابق وأدرك عصر السلف الصالح لا يشمله اصطلاح السلف إلا بتحقق العامل المنهجي ، فطريقة السلف طريقة الإيمان والتسليم ، يؤمنون بكل خبر ورد في القرآن ويصدقون به تصديقا جازما يبلغ حد اليقين ، وينفذون كل أمر شرعي تنفيذا كاملا ، ويعلمون أن ما جاء في القرآن وصحيح السنة لا يمكن أن يعارض صريح العقل والحكمة ، فالله ﷻ هو الذي خلق العقل وهو الذي أرسل إليه النقل ، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده .

ومن ثم فإن العامل المنهجي في تحديد مصطلح السلف هو صحة الاعتقاد الذي يكون فيه المسلم موافقا لطريقة السلف والأئمة كمالك والسفيانين والحمادين ، أعني سفيان بن عيينة وسفيان الثوري ، وحماد بن زيد وحماد بن سلمة ، وكذلك عبد الله بن المبارك والليث بن سعد ، والإمام أبو حنيفة النعمان ، والإمام أحمد بن حنبل قامع البدعة وناصر السنة ، والإمام الشافعي والإمام البخاري ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذي ، وابن ماجة والنسائي والدارمي وغيرهم ، فطريقتهم هي الطريقة التي دل القران عليها وأرشد إليها ، وهي أكمل الطرق وأصحها ، يتوافق فيها العقل مع النقل ولا يتخذون النقل مطية للعقل ، بل يرون الحق فيما نزل من عند الله ﷻ ، ويتهمون أنفسهم وعقولهم إذا عارضت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فحالهم كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦] .

ومن ثم فإن كل من تحقق فيه هذان العاملان عرف بأنه سلفي بالمعنى الاصطلاحي ، وكل من أعقبهم وجاء بعدهم وسار على دربهم واعتقد صحة نهجهم فهو من خير خلف لخير سلف ، وإن لم يدخل تحت السلف اصطلاحا ، فقد يسمي المتمسكون بطريقة السلف المتبعون لهم سلفا على اعتبار التشابه في منهج الأوائل وطريقتهم في فهم القرآن والسنة ، وإن كانوا خلفا للسلف من الناحية الزمنية وهؤلاء هم خير خلف لخير سلف بعكس الخلف من الناحية الاصطلاحية ، فالخلف في الاصطلاح قد ظهر أيضا من خلال أمرين أساسيين أو عاملين مجتمعين ، عامل زمني وآخر منهجي :

أولا : العامل الزمني ويتناول كل من أعقب عصر السلف ولم يدرك عصر خير القرون ، وبدايته الرسمية منذ سيطرة المعتزلة على الخلافة الإسلامية في عصر المأمون بن هارون ، وإن كان ظهور المنهج الكلامي أسبق من ذلك إلا أنه لم يكن على مستوى الخلافة الإسلامية .

ثانيا : العامل المنهجي وهو اتباع المنهج الكلامي والمنطق اليوناني واعتباره أصلا يسيرون على نهجه وميزانا لقياس الأمور العقائدية ، وما عارض ذلك من نصوص الوحي جعلوها أدلة ظنية لا تفيد اليقين ، أو مجازات واستعارات لا حقيقة لها ، وأن العقل عارضها فيجب عندهم تقديمه عليها ، واعتبارها أخبار آحاد لا يجوز الاحتجاج بها على أصولهم ، هذا الاتجاه هو ما عرف بمذهب الخلف قديما ويصدق عليه من سار على دربهم حديثا ، قال ابن حجر العسقلاني : (وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم ، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان ، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلا يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ، ولو كان مستكرها ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه ، هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل ، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل ، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف ، واجتنب ما أحدثه الخلف)[(١)] .

وقال أبو القاسم اللالكائي : (فلم تزل الكلمة مجتمعة والجماعة متوافرة على عهد الصحابة الأول ومن بعدهم من السلف الصالحين ، حتى نبغت نابغة في أول إمارة المروانية تتنازع في القدر وتتكلم فيه حتى سئل عبد الله بن عمر ، فروى له عن رسول الله ﷺ الخبر بإثبات القدر والإيمان به وحذر من خلافه ، وأن ابن عمر ممن تكلم بهذا أو اعتقده بريء منه وهم براء منه ، وكذلك عرض على ابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهما فقالا له مثل مقالته)[(٢)] .

وقد كان أصحاب النبي ﷺ في خلال ثلاثة وعشرين عاما كانوا يسمعون القرآن ويفهمون معناه ، ثم يؤمنون به ويعملون بمقتضاه حتى أكمل الله لنبيه ولأمته الدين وأتم

---

(١) فتح الباري ٢٥٣/١٣ .

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٦/١.

النعمة ، وقد كان فيما نزل به القرآن الكريم الإخبار عن الأمور الغيبية ، كالإخبار عن ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعن اليوم الآخر ووصف الجنة والنار كل ذلك ومما هو في معناه ، كان القرآن يتنزل به والرسول ﷺ يبلغه ويبينه ، والصحابة يتلقونه بالقبول ويفهمونه ويؤمنون به ، ولم يعرف عن أحد منهم أنه تردد أو استشكل شيئا من ذلك ، قال عبد الله بن عباس ﷺ : (ما رأيت خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ﷺ ، كلهن في القرآن ، يسألونك عن المحيض ، ويسألونك عن الشهر الحرام ، ويسألونك عن اليتامى ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم) [(١)] .

ويذكر العلامة ابن القيم أن الصحابة ﷺ قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم ، تلقوا النصوص بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها أمرا واحدا وأجروها على منهج واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها أجزاء متفرقة فأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين [(٢)] .

وذكر موسى بن عمار أنه أعظم ما كانت في الأمة المحنة ، ويعني المعتزلة زمن المأمون والمعتصم ، فتورع من مجادلتهم أحمد بن حنبل ، فموهوا بذلك على الملوك وقالوا لهم إن أهل السنة يفرون من المناظرة لما يعلمونه من ضعفهم عن نصرة الباطل وإنهم لا حجة بأيدهم ، وشنعوا بذلك عليهم حتى امتحن في زمانهم أحمد ابن حنبل وغيره ، فأُخِذ الناس حينئذ بالقول بخلق القرآن حتى ما كان تقبل شهادة شاهد ، ولا يستقضي قاض ، ولا يفتي مفت لا يقول بخلق القرآن ، وكان في ذلك الوقت من المتكلمين جماعة كعبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وعبد الله بن كلاب وجماعة غيرهم ، وكانوا أولي زهد وتقشف ، لم يروا أحد منهم أن يطأ لأهل البدع بساطا ولا أن يداخلهم ، فكانوا يردون عليهم ويؤلفون الكتب في إدحاض حججهم إلى أن نشأ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٤٥٤/١١ (١٢٢٨٨) .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٤٩/١ بتصرف .

بعدهم ببغداد أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري ﷺ وصنف في هذا العلم لأهل السنة التصانيف وألف لهم التواليف حتى أدحض حجج المعتزلة وكسر شوكتهم ، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم ، فكلم في ذلك وقيل له : كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم ؟ فقال : هم أولوا رياسة معهم الوالي والقاضي ، ولرياستهم لا ينزلون إلي ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إلى ولا أسير أنا إليهم فكيف يظهر الحق؟ [1] .

• العقيدة الإسلامية بعد رفع المحنة .

بعد المحنة وانتهاء الأحداث التي وقعت في تلك البدعة الكبرى لم تعد أمور العقيدة على نقائها فيما سلف ، بل تشعبت الآراء الكلامية والفلسفات العقلية في القضايا الغيبية حتى لوثت النقاء الذي عرف به مذهب السلف قبل المحنة ، فقد كان الواقع يعج بالفرق والأحزاب والطوائف المتعددة التي نتجت عن جيل ولد في عصر البدعة وألف الجرأة على تعطيل السنة ونفي أوصاف الله ﷻ ، ومن نظر في كتب الفرق واختلافات المتكلمين التي أعقبت المحنة وجد فوضى فكرية وأمراضا كلامية يصعب استيعابه أو فهم العلة من الخوض فيها .

لقد صور بعضهم هذا الواقع فقال : (واختلفت المعتزلة في صفات الأفعال كالقول خالق رازق محسن جواد وما أشبه ذلك ، هل يقال : إن الباريء لم يزل غير خالق ولا رازق ولا جواد أم لا ؟ على ثلث فرق ، فالفرقة الأولى منهم يزعمون أنه لا يقال إن الباريء لم يزل خالقا ، ولا يقال لم يزل غير خالق ، ولا يقال لم يزل رازقا ، ولا يقال لم يزل غير رازق ، وكذلك قولهم في سائر صفات الأفعال ، والفرقة الثانية منهم يزعمون أن الباريء لم يزل غير خالق ولا رازق ، فإذا قيل لهم : فلم يزل غير عادل ؟ قالوا : لم يزل غير عادل ولا جائر ، ولم يزل غير محسن ولا مسيء ، ولم يزل غير صادق ولا كاذب ، والفرقة الثالثة منهم يزعمون أن الباريء ﷻ لم يزل غير خالق ولا رازق ، ولا يقولون لم يزل غير عادل ولا محسن ولا جواد ولا صادق ولا حليم لا على تقييد ولا على إطلاق لما في ذلك من الإيهام ، وهذا قول معتزلة البغداديين وطوائف من معتزلة

---

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر ص١١٦ .

البصريين)[1] .

ومن العبث الذي وصل إليه المعتزلة وكيف لعب الشيطان بعقولهم اختلافهم هل يقال لله وقدرة أم لا ؟ وهم أربع فرق ، واختلفوا هل يقال لله وجه أم لا ؟ وهم ثلاث فرق ، واختلفوا هل الباري مريد ؟ على خمسة أقاويل ، واختلفوا في كلام الله ﷻ هل هو جسم أم ليس بجسم ؟ وهل هو مخلوق ؟ على ستة أقاويل ، واختلفت المعتزلة في الكلام ، هل هو حروف أم لا ؟ على مقالتين ، واختلفت المعتزلة هل يقال : إن البارئ محبل أم لا ؟ وهم فرقتان ، فزعمت فرقة منهم أن البارئ بخلق الحبل محبل ، والقائل بهذا القول أبو علي الجبائي ومن قال بقوله ، وزعمت فرقة أخرى منهم أن البارئ لا يجوز أن يكون محبلا بخلق الحبل كما لا يكون والدا بخلق الولد ، واختلفت المعتزلة في البارئ هل يقال إنه وكيل إنه لطيف ؟ على مقالتين ، فمنهم من زعم أن البارئ لا يقال إنه وكيل ، وأنكر قائل هذا القول أن يقول حسبنا الله ونعم الوكيل من غير أن يقرأ القرآن[2] .

واختلفت المعتزلة هل يقال إن البارئ قبل الأشياء أو يقال قبل ويسكت ؟ على ثلاث مقالات ، واختلفت المعتزلة هل يجوز أن يسمي البارئ عالما؟ واختلفت المعتزلة هل يجوز أن يقلب الله الأسماء فيسمي العالم جاهلا والجاهل عالما أم لم يكن ذلك جائزا ؟ ، واختلفت المعتزلة هل يجوز أن يسمي الله سبحانه نفسه جاهلا ميتا عاجزا على طريق التقليب واللغة على ما هي عليه ؟ وهم فرقتان واختلفت المعتزلة في البارئ سبحانه هل يوصف بالقدرة على الجور والظلم أم لا يوصف بالقدرة على ذلك ؟ وهم فرقتان[3] .

تلك أمثله قليلة لما كان عليه المتشدقون بالعقل وحريته في الفكر العقدي ، ولما بالغت المعتزلة في نفي أوصاف الله كان رد الفعل الطبيعي أن بالغ آخرون في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه والتجسيم ، فاختلفت المجسمة هي الأخرى فيما بينهم ، فقالوا : هل للبارئ تعالى قدر من الأقدار وما مقداره ؟ على ست عشرة مقالة ، فقال هشام

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص١٨٦ .

(٢) السابق ص١٩٤ .

(٣) السابق ص١٩٦ .

بن الحكم : إن الله جسم محدود عريض عميق طويل ، طوله مثل عرضه وعرضه مثل عمقه ، وهو نور ساطع ، له قدر من الأقدار بمعنى أن له مقدارا في طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزه في مكان دون مكان ، كالسبيكة الصافية يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ، ذو لون وطعم ورائحة وأنه يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد ، وقال بعضهم مساحته على قدر العالم ، وقال بعضهم إن البارئ جسم له مقدار في المساحة ولا ندري كم ذلك ، وقال قوم إن معبودهم هو الفضاء وهو جسم تحل فيه الأشياء ليس بذي غاية ولا نهاية ، وقال داود الجواربي ومقاتل بن سليمان إن الله جسم وإنه جثة على صورة الإنسان ، مكون من لحم ودم وشعر وعظم ، له جوارح وأعضاء كيد ورجل ولسان ورأس وعينين ، وهو مع هذا لا يشبه غيره ولا يشبهه ، وحكى عن الجواربي أنه كان يقول : أجوف من فمه إلى صدره ومصمت ما سوى ذلك تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [١] .

واختلفوا في رؤية البارئ بالأبصار على تسع عشرة مقالة ، فقال قائلون يجوز أن نرى الله بالأبصار في الدنيا ، ولسنا ننكر أن يكون البعض تلقاه في الطرقات ، وأجاز عليه بعضهم الحلول في الأجسام ، وأصحاب الحلول إذا رأوا إنسانا يستحسنوه لم يدروا لعل إلههم فيه ، وأجاز كثير ممن أجاز رؤيته في الدنيا مصالحته وملامسته ومساورته إياهم ، وقالوا إن المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا أرادوا ذلك ، وقال قائلون نرى الله جهرة ومعاينة ، وقال قائلون : لا نرى الله جهرة ولا معاينة ، ومنهم من يقول يجوز أن تحدق إليه إذا رأيته ، ومنهم من يقول لا يجوز التحديق إليه [٢] .

واختلفوا في الذي يقدر على حمل خمسين رطلا ، ولا يقدر على حمل مائة رطل على مقالتين ، فقال قائلون لا بد من أن يكون فيه عجز عن حمل الخمسين الفاضلة ، وقال قائلون لا عجز فيه ، وإنما عدم القوة على ذلك فقط ، واختلفوا هل يجوز أن يقوى الإنسان على حمل جزأين بجزء من القوة أم لا ؟ واختلفوا هل يجوز أن يؤمر بالصلاة قبل دخول وقتها أم لا ؟ على مقالتين ، فأجاز ذلك بعضهم وأنكره بعضهم ، واختلفوا هل يجوز أن يأمر الله سبحانه بالفعل في وقت فعل ثاني ؟ وهو يعلم أنه يحول بين

---

(١) السابق ص٣٢ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص٦٤ ، الفرق بين الفرق للبغدادي ص٤٨.

(٢) مقالات الإسلاميين ٢١٦ .

الإنسان وبين الفعل ؟ على ثلاثة أقاويل ، واختلفوا هل الأجسام كلها متحركة أم كلها ساكنة أم كيف القول في ذلك ؟ على مقالات [١] .

• أبو الحسن الأشعري وظهور الأشعرية.

في خضم تلك المعمعة الفكرية والمعركة العقلية ، ولد أبو الحسن الأشعري الذي تنسب إليه فرقة الأشعرية ، وهو علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري ، نشأ بالبصرة يتيما ، فتزوجت أمه رجلا من شيوخ المعتزلة يقال له أبي علي الجبائي فتربى في حجره وتعلم من فنه في نفي صفات الله [٢] .

وقد وكان واقع المسلمين الفكري ملوثا بعلم الكلام كما وصفناه ، فقد وجد الأشعري منذ نشأته ساحة من الفكر الكلامي الاعتزالي كالوباء الذي يصعب تحديد مصله ، فأخذ ينظر فيها ويقيمها ، ويجمع أقوال الضالين ويدققها ، حتى ألف في ذلك كتابا كبيرا سماه مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ووصل إلى قناعة خاصة بين فيها بصورة واضحة أن الأدلة العقلية تكافأت عنده في العقائد الغيبية ،ولم يترجح عنده شيء من الآراء الاعتزالية ، بل وجدها آراء سقيمة واعتقادات جاهلية عقيمة [٣] .

وقد ذكر أبو الحسن الأشعري أنه كان نائما في ليلة من شهر رمضان فرأى النبي ﷺ في المنام ، فقال له : يا علي انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق ، فلما استيقظ دخل عليه أمر عظيم ، ولم يزل مفكرا مهموما حزينا ، ما المقصود بتلك الرؤية وما المراد منها ؟ ثم بعد أيام رأى النبي في المنام مرة ثانية فقال له : يا علي ما فعلت فيما أمرتك به ؟ فقال أبو الحسن الأشعري : يا رسول الله وما عسى أن أفعل وقد خرجت مذاهب الفقه المروية عنك على محامل صحيحة ؟ فقال لي : انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق ، فاستيقظ وهو شديد الأسف والحزن وعلم أن النبي ﷺ يقصد نصرته في باب العقيد والدفاع عما ورد في الكتاب والسنة بالدلالات العقلية ، فأجمع على عدم الخوض في تتبع الآراء الكلامية والنظر في الطريقة السلفية ، وأن يكثر من تلاوة الآيات القرآنية ، ويلم بالأحاديث النبوية في سائر الأمور الاعتقادية .

---

(١) السابق ٢٤١ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٧/٣ .

(٣) السابق ٣٤٨/٣ .

قال أبو الحسن الأشعري : فلما كانت ليلة سبع وعشرين وكان من عادتي أن أسهر في تلك الليلة أخذني من النعاس ما لم أتمالك معه السهر ، فنمت وأنا أتأسف على ترك القيام ، فرأيت النبي ﷺ مرة ثالثة فقال لي : يا علي ما صنعت فيما أمرتك به ؟ فقالت : يا رسول الله قد تركت الكلام والمتكلمين ولزمت كتاب الله وسنتك ، فقال لي : أنا أمرتك بنصرة المذاهب المروية عني فإنها الحق ، قال فقلت يا رسول الله : كيف أدع مذهبا تصورت مسائله وعرفت دلائله منذ ثلاثين سنة لرؤيا رأيتها ؟ فقال لي : إن الله سيعينك ويمدك بمدد من عنده ، فاستيقظت وقلت في نفسي : وماذا بعد الحق إلا الضلال ، وأخذ في نصرة الآيات والأحاديث التي وردت في إثبات علو الله على خلقة ورؤية المؤمن لربه ، وأنواع الشفاعة بعد الممات وإثبات سائر الصفات وفتح الله عليه من الأدلة والبراهين بما لم يسمعه أحد من المعاصرين له [(١)] .

وروي أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله أقام على المذهب الاعتزالي أربعين سنة بحكم تربيته في حجر أبي علي الجبائي ، فلما شرح الله صدره لاتباع المذهب السلفي غاب عن الناس في بيته أسبوعين ، ثم خرج إلى المسجد الجامع وصعد المنبر وقال : معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتابي هذا ـ كتاب الإبانة عن أصول الديانة ـ وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده ، كما انخلعت من ثوبي هذا ، وخلع ثوبا كان عليه ورمى به [(٢)] .

وقد ذكر البيهقي في ترجمة أبي الحسن الأشعري أنه لم يحدث في دين الله حدثا ولم يأت فيه ببدعة بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين والأئمةِ من بعدهم في أصول الدين فنصرها وأيدها بزيادة شرح وتبيين ، وأن ما قالوا وجاء به الشرع في الأصول صحيح في العقول بخلاف ما زعم أهل الأهواء ، أن بعضه لا يستقيم في الآراء ، فكان يعمل في بيانه وثبوته ، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة ، كأبي حنيفة وسفيان الثوري من أهل الكوفة والأوزاعي وغيره من أهل الشام ، ومالك والشافعي من أهل الحرمين ومن نحا نحوهما من أهل الحجاز ، وغيرها من سائر البلاد ، وكأحمد بن حنبل وغيره من أهل الحديث والليث بن سعد وغيره ، وأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري

---

(١) السابق ٣٤٩/٣ .

(٢) السابق ٣٤٨/٣ .

وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري إمامي أهل الآثار وحفاظ السنن التي عليها مدار الشرع ، وحين كثرت المبتدعة في هذه الأمة وتركوا ظاهر الكتاب والسنة وأنكروا ما ورد من صفات الله تعالى ، وجحدوا المعراج وعذاب القبر والميزان ، وأن الجنة والنار مخلوقتان ، وأن أهل الإيمان يخرجون من النيران ، وما لنبينا من الحوض والشفاعة وما لأهل الجنة من الرؤية ، وأن الخلفاء الأربعة كانوا محقين فيما قاموا به من الولاية وزعموا أن شيئا من ذلك لا يستقيم على العقل ولا يصح على الرأي أخرج الله من نسل أبي موسى الأشعري ﷺ إماما قام بنصرة دين الله ، وجاهد بلسانه وبيانه كل من صد عن سبيل الله وزاد في التبيين لأهل اليقين أن ما جاء به الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة أمر مستقيم على العقول الصحيحة [١] .

• الفرق بين اعتقاد الأشعري وعقيدة الأشعرية.

ظهر المذهب الأشعري بعد عصر المعتزلة واستمر من وقتها حتى الآن ، وبعد استقراء ما تركه أبو الحسن الأشعري من تراث ، ومقارنته بما ورد في أقول العلماء الذين انتسبوا إلى المذهب الأشعري ، تبين أن الفرق واسع بين عقيدة الأشعري والمنتسبين إليه من الأشعرية الذين يزعمون أنهم هم أهل السنة والجماعة ، بل بينهما بون شاسع ، فقد نصر أبو الحسن الأشعري ما كان عليه السلف ودافع عن مذهبهم وحارب البدعة بالنصوص النقلية وملكاته العقلية ، أو بمعنى آخر استخدم عقله وخبرته في علم الكلام لنصرة النصوص وإثباتها ، وذلك خلاف ما عليه علماء الأشعرية الذين قالوا نصالح أو نوفق أو نقرب بين المنهج النصي الذي التزمه السلف والمنهج الكلامي العقلي الذي التزمه المعتزلة ، فأخذوا منهج المعتزلة الذي قرروا به الأصول الخمسة ثم نظروا بها إلى نصوص الكتاب والسنة ، فما وافق أصولهم أخذوه وما خالفها عطلوه بالتأويل ، فأظهروا لنا منهجا مسخا مشوها مذبذبين فيه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو في حقيقته أشد تعقيدا من مذهب المعتزلة .

وقد كان الإمام أبو الحسن الأشعري دائما ما يفند مذهب المعتزلة ليثبت السنة ولم يكن ينقد المعتزلة ليعدل رؤيتهم للنصوص ممتطيا طريقتهم برؤية أخرى ، فقد كان

---

(١) السابق ٣/٣٩٧ .

منهجه منهجا قرآنيا نبويا يقدم فيه النقل على العقل ، ويبذل ما استطاع من الجهد ليثبت ما أرده الله ورسوله من النصوص دون تأويل أو تعطيل .

دخل رجل على أبي الحسن الأشعري وشيخه أبي علي الجبائي ثم سأل : هل يجوز أن يسمي الله تعالى عاقلا ؟ فقال أبو علي الجبائي : لا يجوز ، لأن العقل مشتق من العقال وهو المانع ، والمنع في حق الله محال فامتنع الإطلاق ، فقال له أبو الحسن الأشعري : فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيما ، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج ، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت ﷺ :

فنحكم بالقوافي من هجانا : ونضربُ حين تختلط الدماء

وقول الآخر :

أبني حنيفة حكموا سفهاءكم : إني أخاف عليكمُ أن أغضبا

والمعنى : نمنع بالقوافي من هجانا ، وامنعوا سفهاءكم ، فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع والمنع على الله محال ؛ لزمك أن تمنع إطلاق حكيم على الله تعالى ، فلم يجب الجبائي إلا أنه قال للأشعري : فلم منعت أنت أن يسمى الله عاقلا وأجزت أن يسمي حكيما ؟ قال الأشعري : لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ولو أطلقه الشرع لأطلقته [١] .

والإمام أبو الحسن الأشعري لم يترك مذهبا عقديا مبنيا على خلفية عقلية تحد ما يجب وما يجوز وما يستحيل من صفات الله كما هو حال المنتسبين إليه من متكلمي الأشعرية حتى وقتنا هذا ، بل كل ما تركه اجتهادات رائعة في إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، أما الأشعرية بعد وفاة أبي الحسن الأشعري فأئمة مذهبهم الذين وضعوا أصوله وأركانه طوروا مذهبا جديدا هجينا هشا مسخا مترهلا نسبوه للإمام أبي الحسن الأشعري وهو منه براء .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٥٨ بتصرف .

وذلك لأن المذهب الجديد المنسوب إليه ظلما وزورا تعددت فيه الآراء الكلامية العقلية المخلوطة بالفلسفية اليونانية لتكوين أصوله وعقائده ، فلم يبن في البداية على منهج مؤصل أو كلام واضح في أصوله الاعتقادية تركه لهم أبو الحسن الأشعري ، فبدا مذهبهم مذهبا يعبر عن معتزلة جدد هيمنوا على العالم الإسلامي من وقتها إلى الآن .

ومن أبرز أئمة المذهب الأشعري القاضي أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب بن محمد (ت:٤٠٢هـ) وهو من كبار علماء الكلام ، وأبو إسحاق الإسفراييني (ت:٤١٨هـ) ، وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة القشيرية (ت:٤٦٥هـ) ، وأبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي الفيروز أبادي الشيرازي (ت:٤٧٦هـ) ، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤٧٨هـ) ، وأبو حامد الغزالي الصوفي (ت:٥٠٥هـ) ، ومن أشدهم وأخطرهم فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) ، وهو أبو عبد الله محمد الطبرستاني الرازي الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب كان فقيها شافعيا قال عنه ابن خلكان : (إنه فريد عصره ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات) [١] .

واعتقاد الرازي هو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة ، تلك المرحلة السائدة الآن في البلاد الإسلامية والمقررة على طلاب المعاهد والجامعات الإسلامية حيث خلط الكلام بالفلسفة ، قال فيه الحافظ ابن حجر رحمه الله : (الفخر بن الخطيب صاحب التصانيف رأس في الذكاء والعقليات ، لكنه عرى من الآثار ، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث حيرة ، نسأل الله أن يثبت الإيمان في قلوبنا ، وله كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم سحر صريح فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى) [٢] .

فمصدر التلقي عند الأشاعرة ليس مبدأه الكتاب والسنة كما هو الحال عن أبي الحسن الأشعري وعلماء السلف ، بل أساسه قواعد علم الكلام ، ولذلك فإنهم يقدمون العقل على النقل عند توهم التعارض في نصوص القرآن والسنة ، كما أنهم لا يحتجون بأحاديث الآحاد على تقرير الاعتقاد حتى لو ثبتت في الصحاح لأنها عندهم لا تفيد العلم اليقيني ، ولا مانع عندهم من الاحتجاج بها في الصلاة وبقية الأحكام أو فيما

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ٩/ ٢٤٩.

(٢) لسان الميزان ٤/ ٤٢٦ .

لا يعارض قوانين علم الكلام ، أما الأحاديث المتواترة لو عارضت أصولهم العقلية فيجب تأويلها بأي وسيلة مقبولة أو غير مقبولة ، ولا يخفى مخالفة هذا لما كان عليه السلف الصالح أصحاب القرون الفاضلة ومن سار على دربهم ، فجميع أصحاب النبي ﷺ صدقوا بخبر الواحد ولم يكذبوه ، قال أبو طالب المكي : (فإنا قوم متبعون نقفوا الأثر غير مبتدعين بالرأي والمعقول نرد به الخبر ، وفي رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام من قبل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان ، فإن كانوا عدولا فيما نقلوه من الشريعة فالعدل مقبول القول في كل ما نقلوه ، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من إخبار الصفات فالكذب مردود القول في كل ما جاء به)[(١)] .

ولم يختلف أحد من الأمم في أن رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسولا واحدا يدعوهم إلى الإسلام واحداً واحدا إلى كل مدينة وقبيلة كصنعاء وحضرموت ونجران وتيماء والبحرين وعمان وغيرها من البلدان ، وكان كل رسول يعلم الناس أحكام دينهم كلها ، عقيدة وشريعة ، وافترض النبي ﷺ على كل جهة قبول رواية أميرهم ومعلمهم فصح قبول خبر الواحد الثقة عن مثله مبلغا إلى رسول الله ﷺ[(٢)] .

والقصد أن منهج أبي الحسن الأشعري منهج سلفي قائم على تصديق كل خبر ورد في الكتاب أو صح في السنة على وجه اليقين ، وتنفيذه الأمر على وجه الكمال ، فقد سعى بكل حجة نصية أو عقلية إلى إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فحقيقة مذهبه امتداد لمنهج السلف الصالح في التعامل مع نصوص الوحي .

• مجمل اعتقاد الإمام أبي الحسن الأشعري .

بعد مقدمة رائعة حمد الله فيها ووصفه بأوصاف مستمدة من نصوص الكتاب والسنة بين أبو الحسن الأشعري رحمه الله في آخر كتبه وهو كتاب الإبانة عن أصول الديانة عقيدته التي دان لله بها ، وبين أن النبي ﷺ جاءنا بكتاب عزيز ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢] ، جمع فيه

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ١٢٤/٢ ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ١٣١٠هـ .

(٢) المحلى لابن حزم ٥٢/١ بتصرف .

علم الأولين والآخرين وأكمل به الفرائض والدين ، فهو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين ، فمن تمسك به نجا ، ومن خالفه ضل وغوى وفي الجهل تردى ، وحثنا الله في كتابه على التمسك بسنة رسوله ﷺ ، فقال ﷻ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر:٧] وقال ﷻ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] .. وقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور:٥١] فأمرهم أن يسمعوا قوله ويطيعوا أمره ويحذروا مخالفته وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة:٩٢] ، فأمرهم بطاعة رسوله كما أمرهم بطاعته ودعاهم إلى التمسك بسنة نبيه كما أمرهم بالعمل بكتابه [(١)] .

ثم يمهد الأشعري لوصف المنهج الاعتزالي وما ارتكبته المعتزلة من مخالفات وتطاول على النقل والآيات وتأخير الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية فقال : (فنبذ كثير ممن غلبت عليهم شقوته واستحوذ عليهم الشيطان سنن نبي الله ﷺ وراء ظهورهم ومالوا إلى أسلاف لهم قلدوهم دينهم ودانوا بدياناتهم وأبطلوا سنن نبي الله عليه الصلاة والسلام ، ودفعوها وأنكروها وجحدوها افتراء منهم على الله ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٠]) [(٢)] .

ذلك جانب من مقدمة الأشعري في كتابه الإبانة عن أصول الديانة بدأ فيها بحملة شديدة على المنهج العقلي والفكر ثم قال : أما بعد فإن كثيرا من الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ومن مضى من أسلافهم فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل به الله سلطانا ولا أوضح به برهانا ، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ولا عن السلف المتقدمين ، وخالفوا روايات الصحابة ﷺ عن نبي الله ﷺ في رؤية الله ﷻ بالأبصار ، وقد جاءت في ذلك الروايات من الجهات المختلفات وتواترت بها الآثار وتتابعت بها الأخبار ، وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين ، ودفعوا الروايات في ذلك عن السلف المتقدمين ، وجحدوا عذاب القبر وأن

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص٩ .

(٢) السابق ص١٢ .

الكفار في قبورهم يعذبون ، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين ، ودانوا بخلق القرآن نظيرا لقول إخوانهم من المشركين الذين قالوا : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٥] ، وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر نظيرا لقول المجوس الذين أثبتوا خالقين أحدهما الخير والآخر يخلق الشر [١].

وزعمت القدرية أن الله تعالى يخلق الخير والشيطان يخلق الشر ، وزعموا أن الله تعالى يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء خلافا لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وردا لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [التكوير:٢٩] ، فأخبر تعالى أنا لا نشاء شيئا إلا وقد شاء الله أن نشاءه ولقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ [البقرة:٢٥٣] ، ولقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة:١٣] ، ولقوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦] ، لقوله تعالى مخبرا عن نبيه شعيب ﷺ أنه قال : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩] ، ولهذا سماهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة لأنهم دانوا بديانة المجوس وضاهوا أقاويلهم ، وزعموا أن للخير والشر خالقين كما زعمت المجوس ذلك وأنه يكون من الشرور ما لا يشاء الله كما قالت المجوس [٢].

ثم قال أبو الحسن الأشعري : فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة ، فإن قال لنا قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية و لرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون ، قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ وبسنة نبينا محمد ﷺ وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ودفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين

(١) السابق ص١٤ .

(٢) السابق ص١٥ .

فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفهم (١) .

وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءوا به من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا نرد من ذلك شيئا ، وأن الله ﷻ إله واحد لا إله إلا هو ، فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق . وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش ، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد ، وأن له سبحانه وجها بلا كيف ، كما قال : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧] وأن له سبحانه يدين بلا كيف ، كما قال سبحانه : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] ، وكما قال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤]، وأن له سبحانه عينين بلا كيف ، كما قال سبحانه : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:٤] .. وندين الله ﷻ بأنه يقلب القلوب بين أصبعين من أصابعه ، وأنه سبحانه يضع السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ من غير تكييف ، وندين بأن لا ننزل أحدا من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ولا نارا ، إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ، ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين أجارنا الله منها بشفاعة سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ (٢) .

ونقول : إن الله ﷻ يخرج قوما من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة رسول الله ﷺ تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ ، ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض وأن الميزان حق ، والصراط حق ، والبعث بعد الموت حق ، وأن الله ﷻ يوقف

---

(١) السابق ص٢٠ .

(٢) السابق ص٢١ .

العباد في الموقف ، ويحاسب المؤمنين ، وأن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدل عن عدل ، حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ ، وندين بحب السلف الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين (١) .

وقال أيضا : وأن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأن الله سبحانه وتعالى أعز به الدين ، وأظهره على المرتدين ، وقدمه المسلمون بالإمامة ، كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة ، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ ، ثم عمر بن الخطاب ﷺ ، ثم عثمان بن عفان ﷺ ، وأن الذين قتلوه قتلوه ظلما وعدوانا ، ثم علي بن أبي طالب ﷺ فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ ، وخلافتهم خلافة النبوة ، ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بها ونتولى سائر أصحاب رسول الله ﷺ ، ونكف عما شجر بينهم ، وندين بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون ، مهديون فضلاء ، لا يوازنهم في الفضل غيرهم (٢) .

ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل عن النزول إلى سماء الدنيا ، وأن الرب ﷻ يقول : هل من سائل هل من مستغفر ، وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل ، ونعوّل فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا ﷻ ، وسنة نبينا ﷺ ، وإجماع المسلمين وما كان في معناه ، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا ، ولا نقول على الله مالا نعلم ، ونقول إن الله ﷻ يجيء يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] وأن الله يقرب من عباده كيف شاء بلا كيف كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] وكما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم:٨/٩] (٣) .

ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وفاجر ، كما روى أن عبد الله بن عمر ﷺ كان يصلي خلف الحجاج ، وأن المسح على

---

(١) السابق ص٢٧ .

(٢) السابق ص٢٨ .

(٣) السابق ص٢٩ .

الخفين سنة في الحضر والسفر خلافا لقول من أنكر ذلك ، ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم ، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة ، وندين بإنكار الخروج بالسيف ، وترك القتال في الفتنة ، ونقر بخروج الدجال - أعاذنا الله من فتنته - كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ [(١)] .

ونؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير عليهما الصلاة والسلام ، ومساءلتهما المدفونين في القبور ، ونصدق بحديث المعراج ، وتصحيح كثير من الرؤيا في المنام ، ونقر أن لذلك تفسيرا ، ونرى الصدقة على موتى المسلمين والدعاء لهم ، ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك ونصدق بأن في الدنيا سحرة وسحرا وأن السحر كائن موجود في الدنيا ، وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وتوارثهم ، ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان وأن من مات وقتل فبأجله مات وقتل ، وأن الأرزاق من قبل الله سبحانه يرزقها عباده حلالا وحراما ، وأن الشيطان يوسوس الإنسان ويشككه ويخبطه خلافا للمعتزلة والجهمية ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، وكما قال : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس:٤/٦] [(٢)] .

ونقول : إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات يظهرها عليهم ، وقولنا في أطفال المشركين أن الله تعالى يؤجج لهم في الآخرة نارا ، ثم يقول لهم اقتحموها ، كما جاءت بذلك الرواية ، وندين الله ﷻ بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون وما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين ، ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الأهواء وسنحتج لما ذكرناه من قولنا ، وما بقي منه مما لم نذكره باباً بابا ، وشيئا شيئا إن شاء الله ﷻ [(٣)] .

• هل الاستواء عند أبي الحسن الأشعري استيلاء وقهر ؟

اعتقاد الأشعرية السائد في أغلب البلاد الإسلامية والمعتمد في المعاهد والكليات الشرعية أن الله لا يسأل عنه بأين ، وأن معنى الاستواء على العرش استيلاء وقهر كما

---

(١) السابق ص٣١ .

(٢) السابق ص٣١ .

(٣) السابق ص٣٤ .

عبر أحدهم عن ذلك فقال : (لو سئلنا عن قول الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوَي ﴾ [طه:٥] ، لقلنا المراد بالاستواء القهر والغلبة والعلو ، ومنه قول العرب استوي فلان على المملكة أي استعلى عليها واطردت له ، ومنه قول الشاعر : قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق)[١] .

تلك عقيدة الأشعرية التي يعتبرونها مسألة قطعية ، فماذا قال أبو الحسن الأشعري في مسألة علو الفوقية أو استواء الله على عرشه ؟

قال رحمه الله : إن قال قائل ما تقولون في الاستواء ؟ قيل له : نقول إن الله ﷻ يستوي على عرشه استواء يليق به كما قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] ، وقد قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة:] ، وقال تعالى حاكيا عن فرعون لعنه الله : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ [غافر:٣٧] ، كذب موسى ﷺ في قوله إن الله سبحانه فوق السماوات ، وقال تعالى : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ [الملك:١٦] ، فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات قال : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السماوات[٢] .

وليس إذا قال : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك:١٦] يعني جميع السماوات وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات ، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح:١٦] ، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا وأنه فيهن جميعا ، ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات ، فلولا أن الله ﷻ على العرش لم يرفعوا

(١) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة ص ١٠٨ بتصرف ، وانظر تفصيل القضية عن الأشعرية في أساس التقديس الفخر الرازي ص ٢٠٢ وما بعدها ، وانظر أيضا كتابنا المختصر المفيد في علة تصنيف التوحيد ص٩١ وما بعدها .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة ١٠٥ .

أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطّونها إذا دعوا إلى الأرض [(١)] .

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قول الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله تعالى في كل مكان وجحدوا أن يكون الله ﷻ مستو على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة . ولو كان هذا كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله تعالى قادر على كل شيء والأرض لله سبحانه قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم ، فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهو تعالى مستو على الأشياء كلها لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقدار ، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها ، وإذا كان قادرا على الأشياء كلها لم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله تعالى مستو على الحشوش والأخلية تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها [(٢)] .

وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان ، فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية وهذا خلاف الدين تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، ويقال لهم : إذا لم يكن مستويا على العرش بمعنى يختص العرش دون غيره ، كما قال ذلك أهل العلم ، ونقله الأخبار ، وحملة الآثار ، و إذا كان الله ﷻ في كل مكان فهو تحت الأرض التي السماء فوقها ، وإذا كان تحت الأرض والأرض فوقه ، والسماء فوق الأرض فيلزمكم أن تقولوا إن الله تحت التحت ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا [(٣)] .

ومما يؤكد أن الله ﷻ مستو على عرشه دون الأشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن رسول الله ﷺ ، روى عفان قال : ثنا حماد بن سلمة ، قال : حدثنا عمرو بن دينار عن نافع عن جبير عن أبيه رضي الله عنهم أجمعين أن النبي ﷺ قال : (ينزل ربنا ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر

---

(١) السابق ص١٠٧ .

(٢) السابق ص١٠٨ .

(٣) السابق ص١٠٩ .

له؟ حتى يطلع الفجر) .. نزولا يليق بذاته .. دليل آخر قال الله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان:٥٩] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة:٤] ، فكل ذلك يدل على أنه تعالى في السماء مستو على عرشه ، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض فدل على أنه تعالى منفرد بوحدانيته مستو على عرشه استواء منزها عن الحلول والاتحاد [١] .

وروت العلماء أن رجلا أتى النبي ﷺ بأمة سوداء فقال : يا رسول الله إني أريد أن أعتقها في كفارة فهل يجوز عتقها ؟ فقال لها النبي ﷺ: أين الله ؟ قالت : في السماء قال فمن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، فقال النبي ﷺ : أعتقها فإنها مؤمنة ، وهذا يدل على أن الله تعالى على عرشه فوق السماء [٢] .

تلك بعض الجوانب التي ذكرها أبو الحسن الأشعري وكتبها بنفسه في كتابه الإبانة عن أصول الديانة ، قال ابن العماد بعد أن أورد ما جاء في الإبانة : (ولعمري إن هذا الاعتقاد هو ما ينبغي أن يعتقد ، ولا يخرج عن شيء منه إلا من في قلبه غش ونكد وأنا أشهد الله على أنني أعتقده جميعه ، وأسأل الله الثبات عليه وأستودعه عند من لا تضيع عنده وديعة) [٣] .

لعل الفرق قد ظهر بين اعتقاد أبي الحسن الأشعري وما عليه الأشعرية اليوم في أغلب البلاد الإسلامية ، فنسأل الله ﷻ أن نكون ممن قال الله فيهم : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:١٨] .

---

(١) السابق ص١١٠، ص١١١ ، وحديث النزول أخرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٣٨٤/١ (١٠٩٤) .

(٢) السابق ص١١٩ ، وحديث الجارية أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/ ٣٨١ (٥٣٧) .

(٣) شذرات الذهب ٣٠٥/١ .

الخاتمة

إذا كان الاختلاف بين الناس أمرا مقدرا في سنن الله الكونية وابتلاءا من الله لسائر الإنسانية كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود:١١٨/١١٩] ، إلا أنه من جهة التكليف والعبودية نهى الله عن الاختلاف وحذر من الوقوع فيه، وأمرنا بالاعتصام بكتابه المبين وحبله المتين فقال ﷻ : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:١٠٣] .

ولذلك كان الصحابة والتابعون وغيرهم من علماء سلف يتمسكون بالكتاب والسنة ويعضون عليها بالنواجذ ، ويعتبرون الوحي جملة واحدة من حيث التصديق بخبر الله أو تنفيذ أمره ، روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال : (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ)[1] .

وعند مسلم : (فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللهَ ﷻ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ)[2] .

فهم عمر ﷺ وجماعة من الصحابة أن من أتي بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك فأرادوا أن يتوقفوا في قتال مانع الزكاة ، وفهم أبو بكر الصديق أن لها حقوقا لا تمنع القتال إلا بأدائها ، فلما قرر أبو بكر ﷺ هذا الأمر للصحابة رجعوا إلى قوله ورأوه صوابا ، فوقف الجميع مع أبي بكر ﷺ في قتال المرتدين ومانعي الزكاة حتى نصرهم الله وأعز دينه ، فكانت وقفة أبي بكر عاصمة من قاسمة كادت تحل بالأمة

---

(١) البخاري في الزكاة ، باب وجوب الزكاة ٥٠٧/٢ (١٣٣٥) .

(٢) مسلم في الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ٥١/١ (٢٠) .

الإسلامية ، فالصحابة كانوا يأخذون دينهم جملة واحدة إسلاما لله وإيمانا به ، وطاعة لأمره وتصديقا ويقينا بخبره ، لا يبتدعون بشبهة ولا يميلون بشهوة بل كان سمتهم الاستقامة على طريق الجنة .

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : (ما أحدث أحد في العلم شيئا إلا يسأل عنه يوم القيامة ، فإن وافق السنة وإلا فهو العطب ، ومن سكت عن هذه الحماقات لم يسأل عنها ، وله في رسول الله وصحابته ﷺ وتابعيهم أسوة حسنة ، ونحن إن شاء الله تعالى أعلم بالآثار منكم وأشد لها طلبا ، وقد رضينا لأنفسنا باتباع سلفنا واجتناب المحدثات بعدهم ، أفلا ترضون لأنفسكم بذلك ؟ أولا يسعنا ما وسعهم ؟ أوليس لنا في السنة سعة عن البدعة ؟ ومن لم يسعه ما وسع رسول الله وسلفه وأئمته فلا وسع الله عليه ، ومن لم يكتف بما اكتفوا به ويرضى بما رضوا به ويسلك سبيلهم وكل آخذ منهم فهو من حزب الشيطان ، وإنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، ومن لم يرض الصراط المستقيم سلك إلى صراط الجحيم ، ومن سلك غير طريق سلفه أفضت به إلى تلفه ، ومن مال عن السنة فقد انحرف عن طريق الجنة ، فاتقوا الله تعالى وخافوا على أنفسكم فإن الأمر صعب ، وما بعد الجنة إلا النار ، وما بعد الحق إلا الضلال ولا بعد السنة إلا البدعة)[١] .

وقال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله : (نحن على طريقة سلفنا وجادة أئمتنا وسنة نبينا ، ما أحدثنا قولا ، ولا زدنا زيادة ، بل آمنا بما جاء ، وأمررناه كما جاء ، وقلنا بما قالوا ، وسكتنا عما سكتوا عنه ، وسلكنا حيث سلكوا ، فلا وجه لنسبة الخلاف والبدعة إلينا)[٢] .

---

(١) تحريم النظر في كتب الكلام ص٧٠ ، ص٧١ .
(٢) السابق ص٣٩ .

قائمة أهم المراجع

- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، لأبي عبد الله محمد بن الحسين الرازي ، تحقيق علي سامي النشار طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن القيم ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد نشر دار الجيل ، بيروت سنة١٩٧٣هـ .
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقي نشر دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥ هـ .
- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات ، مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦هـ .
- الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأشعري ، دار الأنصار ، القاهرة ١٣٩٧هـ .
- الباعث على إنكار البدع والحوادث لعبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ، تحقيق عثمان أحمد عنبر نشر دار الهدى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٨م .
- البداية والنهاية ، لأبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير المطبعة السلفية ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، طاهر بن محمد الإسفراييني .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي ، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، نشر المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة سنة ١٩٧٧م .
- الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ، نشر دار الشعب ، القاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٢هـ .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق د.علي حسن ناصر، د.عبد العزيز إبراهيم العسكر ، د. حمدان محمد ، نشر دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الأولى سنة١٤١٤هـ .
- الرد على الزنادقة والجهمية ، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني تحقيق محمد حسن راشد ، نشر المطبعة السلفية ، نشر القاهرة سنة ١٣٩٣هـ .
- الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، نشر دار التقوى ، مصر .
- السلسلة الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، نشر مكتبة المعارف ، الرياض .
- العلو للعلي الغفار للذهبي ، تحقيق أشرف عبد المقصود مكتبة أضواء السلف الرياض ١٩٩٥م .
- الفرق بين الفرق لأبي منصور عبد القادر البغدادي ط٢ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٧م .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، نشر مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- المحلى لابن حزم الظاهري ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة بيروت .
- الملل والنحل للشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني نشر دار المعرفة ، بيروت سنة ١٤٠٤ هـ .

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢هـ .
- إيثار الحق على الخلق لابن المرتضي القاسمي ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٧م .
- إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، لابن جماعة ، نشر دار السلام ، ١٩٩٠م .
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن ابن قاسم ، مطبعة الحكومة ، مكة المكرمة الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢هـ .
- تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، نشر دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ .
- تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة تحقيق عبد الرحمن دمشقية ، دار عالم الكتب الرياض ١٩٩٠م .
- تهذيب الكمال ، أبو الحجاج المزي ، تحقيق د. بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٤٠٠هـ .
- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، لأحمد بن إبراهيم ، تحقيق زهير الشاويش ، نشر المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٦هـ .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٥١هـ .
- خلق أفعال العباد للإمام البخاري الجعفي ، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة دار المعارف السعودية ، الرياض ٣٩٨ هـ .
- درء التعارض بين العقل والنقل لابن تيمية دار الكنوز الأدبية الرياض سنة ١٣٩١ هـ .
- ذم التأويل لأبي محمد عبد الله بن قدامة تحقيق بدر عبد الله البدر الدار السلفية الكويت .
- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه ،طبعة عيسي الحلبي ، القاهرة ١٣٧٢هـ .
- سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان بن الأشعث ، تحقيق محمد محي الدين ، طبعة دار الفكر .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد نشر دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ .
- شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت سنة١٤١٤هـ .
- صحيح مسلم بشرح النووي ، يحيى بن شرف النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٣٩٢هـ .
- صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته ، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي .
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ، للشيخ أبي طالب المكي ، طبعة مكتبة المتنبي القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد طبعة دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية الرياض سنة ١٣٨١ هـ .
- مختصر العلو للعلي الغفار تأليف الحافظ شمس الدين الذهبي تحقيق محمد ناصر الألباني طبعة المكتب الإسلامي دمشق سوريا سنة ١٤٠١هـ .
- مسند أحمد بن حنبل ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة١٣٧٤هـ .
- معارج القبول الشيخ حافظ بن أحمد حكمي ، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر نشر دار ابن القيم ، الدمام سنة٤١٠ هـ .
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت .
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

فهرس المحتويات

****

الإنتاج العلمي للمؤلف

أولا : الكتب المطبوعة :

١. الدليل من الأناجيل على أن نصارى اليوم يعرفون محمدا ﷺ كما يعرفون أبناءهم .
٢. الفضائيات والغزو الفكري .
٣. التصوف هل له أصل في الكتاب والسنة ؟ .
٤. المحكم والمتشابه وعلاقته بالتفويض .
٥. القلب رؤية من الداخل (دراسة وصفية بيانية للأدلة النقلية) .
٦. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة - الجزء الأول الإحصاء .
٧. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة - الجزء الثاني الشرح والتفسير .
٨. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة - الجزء الثالث دلالة الأسماء على الصفات .
٩. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة - الجزء الرابع دعاء المسألة .
١٠. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة - الجزء الخامس دعاء العبادة .
١١. مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصوفية ، نفذ .
١٢. توحيد الصفات بين اعتقاد السلف وتأويلات الخلف .
١٣. إثبات الشفاعة لصاحب المقام المحمود والرد على الدكتور مصطفى محمود .
١٤. توحيد العبادة ومفهوم الإيمان ، نفذ .
١٥. القواعد السلفية في الصفات الربانية .
١٦. البدعة الكبرى (محنة الإمام في صفة الكلام) .
١٧. مختصر القواعد السلفية في الصفات الربانية .
١٨. المختصر المفيد في علة تصنيف التوحيد .
١٩. معجم ألفاظ الصوفية - (الأصول القرآنية للمصطلح الصوفي) ثلاث مجلدات .
٢٠. المختصر في التعرف على أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة .

ثالثا : تحت الطبع

- تفسير آية الكرسي (أعظم أية في كتاب الله) .
- شروط لا إله إلا الله .
- القضاء والقدر .

الإصدارات الصوتية
للشيخ الدكتور محمود عبد الرازق الرضواني

الإصدارات الصوتية والمقروءة التي تعمل على جميع أجهزة الكمبيوتر وجميع مشغلات MP3

- الإصدار الأول ٣٠ محاضرة في أهم موضوعات العقيدة الإسلامية .
- الإصدار الثاني ٣٠ محاضرة في منهج أهل السنة في التوحيد .
- الإصدار الثالث ٣٠ محاضرة في القضاء والقدر وحرية الإنسان .
- الإصدار الرابع ٣٠ محاضرة في أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة .

****

****

للحصول على نسخة إلكترونية مجانية

من جميع المؤلفات والمحاضرات المسموعة والمقروءة

للشيخ الدكتور/ محمود عبد الرازق الرضواني

www.asmaullah.com

ababm@hotmail.com

****

مكتبة سلسبيل
ش العزيز بالله - الزيتون - القاهرة
٤٥٢٢٩١٩ - ٠١٠٦٧٦١٢١٩